محادثاتي

مع ستالين

المكتبة التقدمية

ميلوفان دجيلاس

كان كتابه « الطبقة الجديدة » طريقه الى السجن اربع سنوات . وجاء كتابه هذا ليعيده الى السجن من جديد . ولم يثر كتاب في العالم ، بعد رواية « الدكتور جيفاكو » لباسترناك ، مثل الضجة التي اثارها هذا الكتاب الذي ترجم ، او هو يترجم ، الى جميع اللغات الحية . انه يلقي الضوء على نواح مجهولة من شخصية ستالين وكبار الزعماء السوفيات ، وعلى سياسة الاتحاد السوفياتي واهدافه القريبة والبعيدة .

محـــادثاتي مع ستـــالين

ميلوفان دجيلاس

محادثاتي مع ستالين

Conversations With Stalin
by
Milovan Djilas

Copyright 1962
By Harcourt, Brace & World, INC.
New York City. N. Y.

جميع الحقوق محفوظة

طبـع في دار مجـلة شعر
بيروت ، لبنـان
تموز ١٩٦٢

مُقــدّمة

انه لمن طبيعة الذاكرة البشرية التخلص من التوافه والاحتفاظ بما ثبت انه اكثر اهمية في تطور الاحداث . وهذا هو الجانب الضعيف فيها .

ولكونها ذاكرة متحيزة ، فانهـا لا تستطيع ان تجعل حقيقـة الماضي متجاوبة مع حاجات الحاضر وآمال المستقبل .

في ضوء هـذه المعرفـة حاولت ان اعرض الوقائع صحيحـة بقـدر الامكان .

واذا كان هـذا الكتاب متأثراً بآرائي الحاضرة فهذا ليس عائداً الى ضغينة او تصنع ، وانما الى طبيعة الذاكرة نفسها ولجهدي في اظهـار حوادث ومصادفات الماضي في ضوء آرائي الحالية .

وليس في هذا الكتاب الكثير مما لا يعرفه القاريء المطلع على المذكرات المنشورة او الكتب الاخرى . ومع ذلك فانني اعتبر انه من المفيـد ان اضيف الى ذلك ما اعرفه ، لان الحادثة تصبح اكثر وضوحاً وقرباً للفهم اذا سردت بتفاصيل اكثر ومن عدة جوانب . وانا اعتبر ان العلاقـات الشخصية المباشرة هي اهم من الوقائع الجافـة ، ولذلك فقد عنيت بها

عناية خاصة . واذا كان هـذا الكتاب يتضمن اي شيء مما يمكن نعته بالادب ، فهـذا عائد الى رغبتي في ان اجعل الموضوع واقعياً واشد جاذبية ووضوحاً ، اكثر مما هو عائد الى طريقتي في التعبير .

وقد خطر لي اثناء انشغالي في كتابة قصة حياتي بين عامي ١٩٥٥ ـ ١٩٥٦ ان اضع قصة اجتماعاتي مع ستالين في كتاب منفصل يمكن ان ينشر بسرعة وعلى حدة . الا انني سجنت ولم يكن بالامكان ، اثناء سجني ، ان اقوم بهذا النوع من النشاط الادبي ، لانه بالرغم من ان كتابي يعالج الماضي الا انه لا يستطيع ان يتجنب تأثير العلاقات السياسية الحاضرة .

ولم اعد الى فكرتي القديمة الا بعد الافراج عني في حزيران ١٩٦١ . وعلى وجه التحديد اقول : انه بسبب الاوضاع المتغيرة وتطور آرائي فقد كان علي ان اعالج هذا الموضوع بطريقة جديدة . وقـد اعطيت اهتماماً كبيراً للمظاهر الانسانية والنفسية لهذه الاحداث التاريخية ، بالاضافة الى ان التناقضات فيما قيل عن شخصية ستالين تجعلني اشعر انه بات من الضروري ان اقدم نتائج تأملاتي واختباراتي الشخصية مع هذه الشخصية الغامضة .

وقبل كل شيء ، انني مدفوع بحاجة داخليـة الى ان لا اهمل شيئاً قد يكون ذا اهمية وفائدة للمؤرخين ، وخاصة لاولئك الذين يجاهدون لبنـاء وجود انساني اكثر تحرراً . وسوف اكون مطمئناً انا والقاريء اذا جاءت الحقيقة ، في اية قضية من هذه القضايا ، دون تحريف حتى وان كانت مغلفة بمشاعري واحكامي الخاصة . ذلك انه يجب ان ندرك ان حقيقـة العلاقات الانسانية ، مهما تكن كاملة ، لا يمكن ان تكون إلا حقيقة اشخاص معينين وفي وقت معين .

بلغراد ــ تشرين الثاني ١٩٦١

ميلوفان دجيلاس

اهداء

كانت البعثة البريطانية اول بعثة عسكرية اجنبية اوفدت الى القيادة العليا لجيش التحرير الشعبي ووحدات الفلاحين في يوغوسلافيا . وقد هبطت هذه البعثة بالمظلات خلال شهر ايار عام ١٩٤٣ . وبعد تسعة اشهر ، في شباط ١٩٤٤ ، وصلت البعثة السوفياتية .

وقد نشأت مشكلة ارسال بعثة عسكرية يوغوسلافية الى موسكو على اثر وصول البعثة السوفياتية ، خصوصاً ان بعثة من هذا النوع كانت قد اعدت سلفاً لارسالها مقابل البعثة البريطانية . وفي القيادة العليا ، اي بين اعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعي اليوغوسلافي الذين كانوا يعملون في مقر القيـادة في ذلك الحين ، كان الاعتقاد سائداً بضرورة ارسال بعثة الى موسكو . واعتقد ان تيتو لفت ، شفوياً ، انتباه رئيس البعثة السوفياتية ، الجنرال كورنييف ، إلى هذه الناحية . الا انه من المؤكد ، على اية حال ، ان القضيـة سويت ببرقية من الحكومة السوفياتية . كان ارسال بعثة عسكرية الى موسكو مسألة هامة ، من جميع النواحي ، بالنسبة لليوغوسلاف . ذلك ان هذه البعثة كانت من نوع خاص ولاهداف

خاصة تختلف عن الاهداف التي اعدت من اجلها البعثة العسكرية المنوي ارسالها الى القيادة البريطانية .

كان الحزب الشيوعي ، كما هو معروف ، هو الذي نظم حركة الفلاحين والمجاهدين ضد القوى الالمانية والايطالية المحتلة في يوغوسلافيا واعوانها في البلاد . وبينما كان الحزب يسوّي مشاكله في الداخل بحرب قاسية لا مثيل لها ، استمر في اعتبار نفسه عضواً في الحركة الشيوعية العالمية كشيء غير منفصل عن الاتحاد السوفياتي ، «وطن الاشتراكية» . وخلال جميع مراحل الحرب استطاع المكتب السياسي ، وهو ادق اجهزة الحزب والمعروف باسم «البوليتبيرو» ، ان يبقى على اتصال مع موسكو بالراديو . لقد كان هذا الاتصال قائماً ، شكلاً ، مع الكومنترن ، الشيوعي العالمي ، الا انه كان في الحقيقة قائماً مع الحكومة السوفياتية .

وقد ادت الاوضاع الخاصة الناتجة عن الحرب ونشوء الحركة الثورية ، في مناسبات عديدة ، الى خلافات مع موسكو . وساذكر فيما يلي اهم هذه الخلافات .

لم تستطع موسكو ان تفهم حقيقة الثورة في يوغوسلافيا ، اي حقيقة أن مقاومة قوى الاحتلال كانت تسير جنباً الى جنب مع الثورة في الداخل . والسبب الاساسي لعدم ادراك هذا الواقع هو تخوف الحكومة السوفياتية من وقوف الحلفاء الغربيين ، وخاصة بريطانيا العظمى ، في وجه استغلالها لمآسي الحرب في البلاد المحتلة لكي تنشر الثورة والنفوذ الشيوعي . ولم يكن صراع الشيوعيين اليوغوسلاف منسجماً مع آراء دولة الاتحاد السوفياتي ومصالحه .

ثم ان موسكو لم تدرك خصائص الحرب في يوغوسلافيا . فبالرغم

من الاثر العنيف الذي تركه كفاح اليوغوسلاف في الدوائر الرسمية والعسكرية السوفياتية التي كانت تحارب للحفاظ على الوجود الروسي القومي ضد الهجوم النازي والالماني ، فقد حاولت موسكو الاقلال من اهمية هذا الكفاح بطرق كان اقلها مقارنته بكفاح الفلاحين الروس واساليبهم في هذا الكفاح . وقد كان الفلاحون في الاتحاد السوفياتي قوة ثانوية تابعة للجيش الاحمر ، فلم يتطوروا ابداً الى جيش نظامي . ولم يتمكن الزعماء السوفيات من الادراك ، بتجربتهم الخاصة ، ان الفلاحين اليوغوسلاف كانوا قادرين على ان يتحولوا الى جيش والى حكومة ، وعلى ان يكتسبوا صفات ومصالح تختلف عن صفات السوفيات ومصالحهم ، أو على ان يكون لهم ، بالاختصار ، اسلوبهم الخاص في الحياة .

وقد حصل حادث مصيري وهام بهذا الشأن ، كان له اهمية قصوى بالنسبة لي . ففي آذار عام ١٩٤٣ ، خلال ما دعي بالهجوم الرابع ، جرت مفاوضات بين القيادة العليا والقيادات الالمانية . كانت مناسبة هذه المفاوضات تبادل الاسرى ، الا انها تطورت الى حمل الالمان على الاعتراف بحقوق الفلاحين كمحاربين ، بشكل يمكن معه ايقاف قتل الجرحى والاسرى من الطرفين . وقد حصل ذلك في الوقت الذي وقعت فيه القيادة العليا ، قلب الجيش الثائر ، مع الالوف من جرحانا ، في خطر جسيم ، لدرجة اننا كنا بحاجة الى اية هدنة نحصل عليها . وكان من الواجب ان تتطلع موسكو على ذلك . ولكننا كنا نعلم جيداً ــ لا سيا تيتو لانه يعرف موسكو ودانكوفيتش لأنه يعرفها بالغريزة ــ انه من الافضل ان لا نخبر موسكو بكل شي . كان كل ما تعرفه موسكو هو اننا كنا نفاوض الالمان على مبادلة الجرحى . ولكنهم في موسكو لم

يحاولوا على اية حال تفهم الموقف ، فضلا عن انهم كانوا يشكون بنا ـ بالرغم من انهار الدماء التي سفكناها ـ فتصرفوا بقساوة بالغة . واذكر بعد ذلك ـ في مطحنة قرب نهر رامـــا بمناسبة عبورنا الناراتغا في شباط ١٩٤٣ ـ كيف رد تيتو على هذا التصرف قائلا : « ان واجبنا الاول هو صيانة جيشنا وشعبنا . »

كانت هذه هي المرة الاولى التي حصل فيها عدم انسجام بين احد اعضاء اللجنة المركزيـــة وموسكو . وكانت هي المرة الاولى ايضاً التي اقتنعت فيها ، بعيداً عن كلمات تيتو وان يكن تحت تأثيرها ، بان هذا الخلاف ضروري اذا كان علينا ان ننتصر في هذا الصراع بين الموت والحياة في هذه العوالم المتنازعة .

وقد وقعت حادثة اخرى في ٢٩ تشرين الثاني ١٩٤٣ في « جاجسا » اثناء الجلسة الثانية للمؤتمر المناهض للفاشية ، حين قدمت في الجلسة مقترحات بلغت حد اقرار نظام اشتراكي وسياسي في يوغوسلافيا . ثم تألفت في الوقت نفسه هيئة وطنيـــة للعمل كحكومة موقتة في يوغوسلافيا . كان مقرراً ان لا تعرف موسكو شيئاً إلا بعد الانتهاء من هذه الاجراءات ، إذ كنـــا نعرف من التجارب السابقة انها لن تكون قـادرة على تفهم الموضوع . وقد ثبت ذلك من ردود فعل موسكو على هذه الاقتراحات . إذ كانت سلبية لدرجة ان بعض اجزاء المقررات لم تذع حتى من محطة اذاعة يوغوسلافيا الحرة التي كانت موجودة في الاتحاد السوفياتي لمساعدة حركة المقاومة في يوغوسلافيا .

وهكذا عجزت موسكو عن ان تفهم اهم عمل قامت به الثورة اليوغوسلافية ، وهو العمل الذي حوّل هذه الثورة الى نظام جديد ونقلها الى المسرح الدولي .

ولم تعدل موسكو موقفها لتتجاوب مع الحقائق الا بعد ان اصبح واضحاً ان الغرب اعطى ردود فعل لمقترحات مؤتمر « جاجسا » تنم عن التفهم . ومع ذلك ، فقد ظل الشيوعيون اليوغوسلاف ، بالرغم من هذه الاختبارات التي لم يفهموا نتائجها الا بعد الانفصال عن موسكو عام ١٩٤٨ ، وبالرغم من اختـــلاف طرقهم في الحيـــاة ، يعتبرون انفسهم مرتبطين بموسكو فكرياً ومن اشد اتباعها اخلاصاً . ومع ان بعض الحقائق الثوريـة كانت تفصل الشيوعيين اليوغوسلاف عن موسكو ، فقد اعتبروا هـــذه الحقائق بالذات ، وخاصة حقيقـــة انتصاراتهم في الثورة ، دليـلاً على ارتباطهم بموسكو وبالمناهج الفكرية التي درجت عليها . ولم تكن موسكو ، بالنسبة لليوغوسلاف ، مجرد مركز سياسي وروحي ، بل كانت ايضاً صورة مجسدة لمثل اعلى : « مجتمع بلا طبقات » — وهو امر لم يكتف بجعـل تضحياتهم وآلامهم سهلة وعذبة ، بل عزز ايضاً ايمانهم بوجودهم .

ولم يتساو الحزب الشيوعي اليوغوسلافي بالحزب الشيوعي السوفياتي ، في الانسجام الداخلي فقط ، وانما تساوى به ايضاً من حيث الاخلاص للزعامة السوفياتية ، وهو اخلاص كان يعتبره العنصر الاساسي في نموه وتطوره . حتى ان ستالين لم يكن فقط الزعيم العبقري الذي لا يعارض وانما كان ايضاً التجسيد الفعلي لافكار المجتمع الجديد واحلامه . هذا التأليه لشخصية ستالين ، ولكل شيء تقريباً في الاتحاد السوفياتي ، اتخذ مظاهر غير واقعية . فقد كان كل عمل تقوم به الحكومة السوفياتية — الهجوم على فنلندا مثلاً — وكل المظاهر السلبية في الاتحـــاد السوفياتي — المحاكمات والتطهير مثلاً — تلاقي كل تبرير ودفاع . وما بدا اكثر غرابـــة ان الشيوعين نجحوا في اقناع انفسهم بصحة وسلامة هـــذه الاعمال وفي ازالة جميع آثار الوقائع الصحيحة وغير المرضية ، من تفكيرهم .

ولقد كان بيننا ، نحن الشيوعيين ، رجال يتمتعون بموهبة فنية واطلاع كافٍ على الادب والفلسفة . ومع ذلك فقد سلمنا دون جدال ، ليس بآراء ستالين فقط ، بل بكمالها التام ايضاً . وقد اشرت عدة مرات الى الوضوح والجلاء في اسلوبه ، والى تأثير منطقه في النفس ، والى الانسجام الداخلي في تعليقاته ، كأنها تعبير عن الحكمة المثلى . إلا انه لم يكن من الصعب علي ان ارى في اي كاتب آخر ، من النوع نفسه ، اسلوباً باهتاً ضعيفاً . وكان هذا التأليه يتخذ اشكالاً مضحكة في بعض الاحيان : لقد آمنا فعلاً بان الحرب سوف تنتهي في عام ١٩٤٢ لان ستالين قال ذلك . وعندما لم يصدق ، تحولت نبوءته الى عالم النسيان ، دون ان يفقد النبي شيئاً من مقدرته العجيبة . والحق ان ما حدث للشيوعيين اليوغوسلاف هو نفس ما حدث ، خلال تاريخ الانسانية الطويل ، لجميع الذين ربطوا مصيرهم الشخصي ومصير الانسانية جمعاء بفكرة واحدة : لقد نعتوا ستالين والاتحاد السوفياتي ، دون شعور ، بصفات كانت ضرورية لصراعهم ومتطلباته .

وكما كان مقرراً ، فقد سافرت البعثة العسكرية اليوغوسلافية الى موسكو ، مشبعة بصور مثالية عن الحكومة السوفياتية والاتحاد السوفياتي من جهة ، وعن الحاجة العملية اليهما من جهة ثانية . وكان يبدو ، في الظاهر ، بان هذه البعثة شبيهة بالبعثة البريطانية ، ولكنها كانت في تركيبها واهدافها بعثة ارتباط عسكرية تعمل بزعامة سياسية تشبهها في الآراء والاهداف . وبكل بساطة : كانت البعثة مزيجاً من الصفات العسكرية والحزبية .

— ٢ —

وهكذا لم يكن من الصدفة ان يرسلني تيتو مع الجنرال فاليمير

تارزيتش في البعثة كاحد كبار المسؤولين في الحزب (كنت في ذلك الحين عضواً في قيادة الحزب لعدة سنوات) . وقد اختير بقية اعضاء البعثة ايضاً من المسؤولين الحزبيين والعسكريين ، وبينهم خبير مالي . وضمت البعثة ايضاً بافل ساڤيتش ، وهو خبير في الذرة ، لافساح المجال امامه لمتابعة نشاطه العلمي في موسكو . وكان معنا ايضاً انطون اوغوستونشيتش ، وهو نحات ، اعطي اجازة للراحة من ويلات الحرب بحيث يتمكن من متابعة نشاطه الفني . وكنا جميعاً بألبسة عسكرية . اما انا فبرتبــة جنرال . واعتقد ان سبب اختياري هو اجادتي للغــة الروسية التي تعلمتها في السجن خلال سنوات ما قبل الحرب . وهناك سبب آخر هو انني لم اكن قد زرت الاتحـاد السوفياتي قبل ذلك فلم اكن احمل اي عبء قديم . ومع ان بقية اعضاء البعثة لم يزوروا الاتحاد السوفياتي من قبل ، الا انهم لم يكونوا على معرفة جيدة باللغة الروسية .

كان ذلك في بداية شهر آذار ١٩٤٤ .

ثم مضت عدة ايام لجمع اعضاء البعثة وتهيئة اجهزتهم . أما زينا العسكري فكان قديماً ومزركشاً . وبما اننا كنا بحاجة الى ثياب فقد صنعت لنا ألبسة خاصة من ثياب عسكرية لبعض الضباط الايطاليين الاسرى . وكان علينا ان نحصل ايضاً على جوازات سفر لنتمكن من عبور الاراضي البريطانية والاميركية ، فطبعت لنا على الفور جوازات كانت هي الجوازات الاولى للدولة اليوغوسلافية الحديثة حاملة توقيع تيتو الخاص .

وقد قدمت اقتراحات بارسال هدايا الى ستالين . ولكن من اي نوع ومن اين ؟ كانت القيادة العليا ، في ذلك الحين ، في « درفر » في بوسنيا تحيطها بعض المدن المقفرة . ومع ذلك فقد وجد الحل : ان نأخذ معنـا

الى ستالين احدى البنادق المصنوعة في احد مصانع الفلاحين في « يوجيس » عام ١٩٤١ . وقد وجدنا صعوبة في ايجاد هذه البندقية . ثم اخذت الهدايا ترد من القرى : اكياس ومحفظات ومناشف واحذية وملابس للفلاحين ، فاخترنا الاحسن منهـا : صنادل من جلد غير مدبوغ واشيـاء اخرى بسيطة وبدائية . ولانها كانت ادوات بسيطة ، فقد ارتأينا اخذها كرمز للثقـة الشعبية .

كان هدف البعثة ان تمهد لمساعدة سوفياتيـة لجيش التحرير الشعبي . وقد كلفنا تيتو في الوقت نفسه بالحصول عن طريق الحكومة السوفياتيـة او بوسائل اخرى ، على مساعدات من هيئة الاغاثة الدولية للمناطق المحررة في يوغوسلافيا . كان علينا ان نطلب من الحكومة السوفياتية قرضاً بمبلغ ٢٠٠ الف دولار لتغطية نفقات بعثتنا في الغرب . وقد اكد تيتو اننـا سنسدد المبلغ وثمن الاسلحـة والعقاقير الطبيـة ، عندما تتحرر البـلاد . وكان على البعثة ان تأخذ معها ارشيفي القيـادة العليـا واللجنة المركزية للحزب الشيوعي .

والاهم من كل ذلك ، فقد كان على البعثة ان تجس نبض الحكومة السوفياتية لمعرفة امكانية اعترافها بالهيئة الوطنية كحكومة موقتة شرعيـة واكتساب التأثير السوفياتي على الحلفاء الغربيين في هذا المجال . وكان على البعثة ان تجري اتصالاتها مع القيـادة العليـا بواسطة البعثـة السوفياتية ، بالاضافة الى واسطة الاتصال التقليدية مع الكومنترن .

وفضلا عن مهمات البعثة هذه ، فقد كلفني تيتو قبل سفرنا بان اعرف من ديمتروف او من ستالين ما اذا كان هناك عدم رضى على اعمال حزبنا . وكان هذا الطلب من تيتو مجرد طلب شكلي ، وهو ان يلفت الانتبـاه

الى ان علاقاتنا مع موسكو ما زالت ضمن النظام . فقد كان مقتنعاً تماماً بان الحزب الشيوعي في يوغوسلافيا قد اجتاز التجربة منفرداً . وكان امامنا ايضاً بحث قضية بعض اعضاء الحزب الشيوعي اليوغوسلافي المهاجرين (شيوعيون سافروا الى روسيا قبل الحرب) . كان موقف تيتو من هذه القضية انه يجب تجنب الدخول في مهاترات مع هؤلاء المهاجرين ، خصوصاً اذا كانوا على علاقة وثيقة بالدوائر الرسمية السوفياتية . وفي نفس الوقت ، فقد اكد علينا تيتو بالاحتراز من السكرتاريين ، لانه كان هناك الكثير منهم . وقد فهمت من ذلك اننا لسنا ذاهبين لمجرد الحفاظ العادي على الاحترام التقليدي لسمعة الحزب ، وانما لتجنب كل ما من شأنه ان يسيء الى الحزب اليوغوسلافي والشيوعيين اليوغوسلاف .

كان الفرح يملأ كياني وانا اتصور اقتراب موعد لقائي بالاتحاد السوفياتي ، الارض الاولى في التاريخ ــ على ما كنت اؤمن ايماناً اقوى من الصخر ــ التي تجسد فيها حلم الطامحين وعزم الابطال وآلام الشهداء . كنت اشعر بذلك لانني انا ايضاً تألمت وقاسيت العذاب في السجون ، انا ايضاً حقدت وبذلت دماً دون حساب ، ولم اوفر حتى دم اشقائي .

إلا ان الحزن كان يخالجني ايضاً ، عندما شعرت انني سأترك رفاقي في وسط المعركة واغادر بلادي في كفاح مصيري في ساحة الحرب ووسط الخراب .

التحقت برفاقي الذين كانوا فرحين مثلي وتوجهت الى المطار قرب « بوزانسكي باتروفاك » . وقد قضينا النهار بكامله هناك نتجول في المطار ونتحدث مع الموظفين الذين كانوا يجيدون تأدية الخدمات ، ومع الفلاحين الذين اعتادوا على النظام الجديد وحتمية انتصاره .

وفي تلك الايام كانت بعض الطائرات البريطانية تهبط دائماً طوال الليل ، بمعدل طائرتين او ثلاث كل ليلة . كانت تنقل الجرحى والمسافرين العابرين ، وتجلب معها الاغذية والعقاقير . وقد جلبت احدى الطائرات مرة سيارة جيب ، مهداة الى تيتو من القيادة البريطانية . وحدث انه في نفس المطار هبطت البعثة البريطانية لشهر مضى ، في منتصف النهار ، في طائرة فوق الجليد . وقد كان ذلك عملاً باهراً ، بالاضافة الى كونه منظراً رائعاً تمثل في تلك الطائرة البريطانية المقاتلة ، الكبيرة الحجم ، التي هبطت فوق الثلوج .

كان اقلاع طائرتنا عملا باهراً ايضاً . فقد كان عليها ان تطير على مسافة قريبة من الصخور المسننة لكي تهبط فوق الثلوج الوعرة في محيط ضيق ، ثم تقلع من هناك مرة ثانية .

وكم بدت ارض بلادي حزينة ، غارقة في الظلام . كانت الجبال متشحة بالثلوج ، داخلة ضمن فجوات سوداء بينما كانت الكآبة تفترس الوديان دون ان تبدو اية اطلالة من النور قرب البحر وعبر امواجه .

كان هناك حرب ـ حرب هائلة لم نعرف مثلها من قبل ، وعلى ارض اعتادت على الحروب والثورات . كان الشعب في قبضة المحتلين ، بينما الاشقاء يذبحون بعضهم بعضاً في حرب اكثر قسوة ومرارة . متى تضيء المصابيح من جديد فوق قرى ومدن بلادي ؟ هل تراها تجد المسرة والهدوء بعد كل هذا الحقد وهذا الموت ؟

كانت محطتنا الاولى « باري » ، في ايطاليا ، حيث كان هناك قاعدة للفلاحين اليوغوسلاف . ومن هناك طرنا الى تونس . كان علينا ان نطير بشكل دائري بسبب القواعد الالمانية في كريت واليونان . وفي

الطريق توقفنا في مالطا ، كضيوف على القيادة البريطانية . ثم وصلنا « طبرق » في الليل ، وكأننا كنا هناك على موعد مع النيران التي تملأ السماء منطلقة من تحتنا ، من الصحراء .

وفي اليوم التالي وصلنا القاهرة . فانزلنا البريطانيون سراً في احد الفنادق ووضعوا سيارة تحت تصرفنا .

وقد تبادر الى التجار واصحاب الصنائع اننا روسيون بسبب النجوم الخمس فوق قبعاتنا العسكرية ، ولكنه كان من دواعي ارتياحهم عندما قلنا لهم اننا يوغوسلاف وذكرنا امامهم اسم تيتو . فقد كانوا على علم بكفاحنا . وفي احد الدكاكين استقبلنا بحفاوة وبلغة يوغوسلافية مكسرة ، تعلمتها الفتيات البائعات من بعض الضباط المهاجرين . وقد اعلنت مجموعة من هؤلاء الضباط ولاءها لتيتو ، مدفوعة بتوق للقتال وحنين الى الارض المعذبة .

وعندما علمت ان رئيس هيئة الاغاثة الدولية ، المستر ليمان ، موجود في القاهرة ، طلبت من الوزير السوفياتي ان يأخذني اليه لاقدم له مطاليبنا . وقد استقبلنا الرجل الاميركي ببرودة ، ولكن دون تأخير ، معلناً ان مطاليبنا ستحظى بكل اهتمام في الاجتماع المقبل لمجلس الهيئة وبان الهيئة تتعامل فقط ، من ناحية المبدأ ، مع الحكومات الشرعية .

وعند لقاء هؤلاء المندوبين تحققت من صدق فكرتي البدائية عن الرأسمالية باعتبارها العدوة اللدودة لكل تقدم وباعتبارها عدوة المظلومين والمضطهدين . فقد استقبلنا المستر ليمان ممدد القدمين ، بينما بدا لي المترجم ، وهو رجل عملاق فج الملامح ، في صورة رجل شرير في احد افلام رعاة البقر . ومع ذلك فلم يكن هناك ما يزعجني في سخاء ليمان

واريحيته ، فقد تلقى مطاليبنا واعداً بانها ستكون موضع عناية .

واغتنمنا فرصة اقامتنا في القاهرة خلال تلك الايام الثلاثة ، فزرنا الاماكن التاريخية ، وفي الوقت نفسه دعانا المايجور ديكن الى الغداء ، وهو الرئيس الاول للبعثة البريطانية في يوغوسلافيا ، وقد كان في القاهرة آنذاك .

ومن القاهرة ذهبنا الى القاعدة البريطانية في الحبانية ، بالقرب من بغداد . وقد رفضت القيادة البريطانية ان تأخذنا الى بغداد لعدم توفر السلامة والامان ، فاعتبرنا ذلك تغطية لبعض مناظر الارهاب الاستعماري الذي كان في نظرنا اكثر عنفاً من احتلال الالمان لبلادنا . الا ان البريطانيين دعونا بدلا من ذلك الى مباراة رياضية لجنودهم . وكنا نبدو في مظهر مضحك ، حتى بالنسبة لنا ، فكيف بالنسبة للانكليز المحافظين والمهذبين . اذ كانت ثيابنا ضيقة ومزررة حتى العنق .

وكان يرافقنا ضابط عسكري ، وهو انسان مرح طيب القلب ، حرص دائماً على الاعتذار بسبب ضعف لغته الروسية التي تعلمها اثناء التدخل البريطاني في اركنجال ايام الثورة الروسية . كان متحمساً للروس (الوفود الروسية توقفت ايضاً في الحبانية) ، ولم يكن تحمسه لنظامهم الاجتماعي وانما لبساطتهم ، وخصوصاً لمقدرتهم على ابتلاع كوب ضخم من الفودكا او الويسكي جرعة واحدة : « على صحة ستالين ، على صحة تشرشل ! » .

كان الضابط العسكري يتكلم بهدوء ، ولكن ببعض الفخر ، عن معارك الاهلين الذين كان العملاء الالمان يعملون على استفزازهم . ولم تستطع طبيعتنا العقائدية ان تفهم كيف كان من الممكن ان يضحي انسان ما بنفسه « من اجل الاستعمار » ــ لاننا هكذا كنا نفهم كفاح الغرب ــ الا

اننا في قرارة نفوسنا كنا معجبين ببطولة البريطانيين وثباتهم ، هؤلاء الذين ركبوا المغامرات وانتصروا في الصحاري الاسيوية ، مع انهم كانوا قلة ضئيلة لا امل لهم في المساعدة . وبالرغم من انني لم استطع في ذلك الحين ان استخلص بعض النتائج العامة من ذلك كله ، الا ان هذه الامور ، بالطبع ، قد ساعدتني فيما بعد على الادراك بانه ليس هناك مثال اعلى واحد ، وانما هناك انظمة من التفكير لا حصر لها ، في هذه الارض .

كنا نشك في البريطانيين ولذلك تجنبناهم . وقد كان السبب الرئيسي لهذا الشك ما نحمله عنهم من تصور تقليدي بانهم جواسيس « الانتلجنس سرفيس » . الا ان هذا الموقف كان مزيجاً من الشعارات العقائدية وتأثيرات الادب العرقي ، بالاضافة الى ضعف تجاربنا في هذا العالم الواسع .

ومن المؤكد ان هذه الشكوك كان من الممكن ان لا تكون عنيفة لولا تلك الاكياس المليئة بارشيفات القيادة العليا ، لان هذه الاكياس كانت تحتوي ايضاً على البرقيات المتبادلة بيننا وبين الكومنترن . وهناك سبب آخر لهذه الشكوك هو ان السلطات العسكرية البريطانية لم تظهر اهتماماً بهذه الاكياس وكأنها اكياس مليئة بالصفائح او الاحذية . ولكي اكون على ثقة ، فقد جلست امامها خلال الرحلة . ولكي اتجنب الوحدة في الليل ، فقد نام ماركو معي . كان ماركو شيوعياً قديماً في مونتاناغرو ، وقد اعتنق الشيوعية قبل نشوب الحرب . وكان ، رغم بساطته ، شجاعاً ومخلصاً لما يؤمن به .

وحدث ذات ليلة ، في الحبانية ، ان احدهم فتح باب غرفتي بهدوء . فاستيقظت بالرغم من انني لم اكن قد سمعت صوت الباب ،

ولمحت في ضوء القمر هيئة شخص من ابنـاء البلد ، الا انني وجدت صعوبـــة في الخروج من ناموسية النوم ، فامسكت بالمسدس من تحت المخدة وصرخت . واستيقظ ماركو (كان نائماً بكل ثيابه) الا ان الرجل الغريب كان قد اختفى . والراجح ان الرجل ربما قـــد اضاع طريقه او حاول ان يسرق شيئاً . ومع ذلك كان هـــذا الحادث كافيـــاً ، بالنسبة لنا ، لرؤية مدى خبرة الجاسوسية البريطانية في هذا المجال ، مما زاد في حذرنا . وقد خالجنا الفرح في اليوم التالي عندما وضع البريطانيون تحت تصرفنا طائرة خاصة للسفر الى طهران .

كانت طهران ، من القيادة السوفياتية الى السفارة السوفياتية ، قطعة من الاتحاد السوفياتي . وقد رحب بنا الضباط السوفيات بحرارة واظهروا حفاوة روسية بالغـة لا يدانيها سوى تعاونهم معنا كمحاربين قدماء لهدف واحد في بقعتين مختلفتين من العالم . وفي السفارة الروسية اتيـح لنا ان نشاهد الطاولة المستديرة التي انعقد حولها مؤتمر طهران ، والغرفة العليـا التي جلس فيها روزفلت . لم يكن هناك احد ، وكان كل شيء يبدو كما تركه .

واخيراً اقلتنا طائرة سوفياتية الى الاتحاد السوفياتي ، مقر آمالنـــا واحلامنا . وبقـدر ما كنا ندخـــل في امدائه الرمادية ـ الخضراء ، كانت تتملكني مشاعر اقل رهبة وشكوكاً . فقد كنت احس انني عائد الى وطني الطبيعي بالرغم من انه كان وطناً مجهولا بالنسبة لي . وكـان هذا الشعور عميقاً يتعدى حدود ولائي للشيوعية . لقد تذكرت كيف كان المفكرون والمحاربون والسياسيون والقادة ـ وخاصـــة اساقفة مونتناغرو المعذبـة ـ من قدامى اليوغوسلاف ، ولثلاثة قرون خلت ، يحجون الى روسيا بحثاً عن العطف والتفهم والانقاذ . ألم اكن مسافراً على طريقهم ؟

اوَ ليست هذه الارض ارض اجدادنا التي حصرتها الثلوج في البلقان ؟ ان روسيا لم تفهم ابداً الجنوب السلافي وآماله البعيدة . وقد كنت مقتنعاً ان ذلك يعود الى ان روسيا كانت قيصرية واقطاعية . وكان اكثر ما اؤمن به هو ان جميع اسباب الخلافات الاجتماعية وغيرها ، بين روسيا والشعوب الاخرى قد زالت اخيراً . وقد اعتبرت هذا الامر في ذلك الحين تحقيقاً للاخوة البشرية ، بالاضافة الى كونه يمثل روابط ما قبل التاريخ بين المجتمع السلافي . ألم تكن هذه الارض اكثر من ارض اجدادي ؟ ألم تكن ارض المقاتلين الذين كانوا يموتون في سبيل الاخوة الكاملة بين البشر وفي سبيل سيطرة الانسان الكاملة على الكون .

ولقد شعرت انني اصبحت جزءاً من تموجات نهر الفولغا ، وان نفسي قد وجدت حقيقتها الفطرية القديمة ، المليئة بالرغبات الداخلية الغامضة . وقد خطر لي ان اقبل الارض الروسية ، الارض الروسية التي تحت قدمي . الا انني خشيت ان يبدو ذلك شبيهاً بالتصرف الديني او المسرحي .

وفي « باكو » قابلنا احد القواد العسكريين ، وكان عملاقاً صامتاً مهنته الحرب وكل ما في الحياة العسكرية . كان رمزاً لحرب عظيمة ولارض عظيمة تواجه اعتداء اثيماً . واذ فوجيء بتحفظنا وخجلنا ، قال : « غريب هذا النوع من الناس . لا يشربون ولا يأكلون .. نحن الروس نأكل جيداً ونشرب اكثر .. ونحارب كأحسن ما تكون الحرب . »

كانت موسكو كئيبة قاتمة ، مليئة بالبنايات المنخفضة . ولكن اية اهمية لذلك كله امام الاستقبال الذي هيء لنا ؟ كان التكريم عائداً لرتبة كل منا . وقد تعمدوا عدم اظهار عواطف الصداقة على اعتبار اننا بصدد كفاح شيوعي . واي شيء كان يوازي اهمية الحرب مما نعتبره التجربة

النهائية للجنس البشري والمعنى الاساسي لحياتنا ومصيرنا ؟ ألم يكن كل شيء باهتاً وفارغاً امام الحقيقة الواضحة امامنا ، في الارض السوفياتية ، ارضنا وارض الجنس البشري ، التي خرجت من كابوس مريع الى حقيقة هادئة مفرحة ؟

ـ ٣ ـ

انزلونا في « مركز الجيش الاحمر » وهو شبه فندق للضباط السوفيات . كان الطعام وجميع الحاجات الاخرى على أتم ما يرام . وقد اعطونا سيارة وسائقاً يدعى بانوف ، وهو انسان بسيط مجرب ينحني ظهره قليلاً الى الامام . وكان هناك ايضاً ضابط ارتباط يدعى الكابتن كوزوفسكي ، وهو شاب بهي الطلعة ، فخور باصله القوزاقي . وقد كان وجوده سبباً لثقتنا باننا سنحصل دائماً على بطاقات للمسرح والسينما وما الى ذلك .

الا اننا لم نستطع ان ننشيء اي اتصال جدي مع الشخصيات السوفياتية المسؤولة ، مع انني طلبت مقابلة ف. م. مولوتوف الذي كان مديراً للشؤون الخارجية ، أو مقابلة ي. ف. ستالين رئيس الوزراء والقائد الأعلى للقوات المسلحة ، اذا كان هنالك من مجال . ولم تنفع جميع المحاولات التي بذلتها للموافقة على طلبي .

ولم اتمكن ايضاً من الحصول على اية مساعدة من السفارة اليوغوسلافية بهذا الصدد ، وكانت ما تزال سفارة موالية للحكومة القائمة ، مع ان السفير سيميتش وموظفي السفارة كانوا قد اعلنوا ولاءهم للمارشال تيتو . ولذلك فقد كنا نحظى اكثر منهم بالاحترام والنفوذ ، بالرغم من الاحترام الشكلي الذي كانت تظهره لهم السلطة .

كما اننا لم نتمكن من الحصول على أي شيء بواسطة المهاجرين من الشيوعيين اليوغوسلاف الذين كانوا مجموعة صغيرة أعمل بها سيف التطهير. كان ابرزهم فالجكو فلاهوفيتش. وهو من زملائي الطلاب الثائرين المنضوين، فيما مضى، تحت لواء الحركة الثورية في جامعة بلغراد ضد دكتاتورية الملك الاسكندر. كان فالجكو احد الذين عاشوا الحرب الاهلية الاسبانية، في الوقت الذي كنت فيه قادماً من حرب اخرى اكثر عنفاً. كان رجلاً يتمتع بشخصية كاملة، يجمع الى حكمته ثقافة عالية جداً، مع انه كان اكاديمياً غير مستقل في ارائه وتفكيره. كان مديراً لاذاعة يوغوسلافيا الحرة، وكانت مساهمته فعالة الا ان اتصالاته لم تتعد جيورجي ديميتروف، الذي اشترك، منذ حل الكومنترن، مع د. ز. مانويلسكي في ادارة قسم اللجنة المركزية السوفياتية للاحزاب الشيوعية في الخارج. وقد استقبلنا بجفاوة وكرم، الا اننا رغم ذلك لم نستطع ان نفعل شيئاً بشأن المشكلة الكبرى التي كان علينا عرضها وايجاد الحلول لها. اما فيما عدا ذلك، فيجب القول اننا قد استقبلنا بحفاوة واهتمام بالغين. وهكذا مضى علينا شهر قبل ان استقبلني ستالين ومولوتوف مع الجنرال تارزيتش. وقد ادى هذا الاستقبال الى فتح جميع الابواب المغلقة امامنا في الادارة السوفياتية وفي علية المجتمع السوفياتي.

كانت لجنة «الوحدة السلافية»، التي انشئت خلال الحرب، اول هيئة نظمت لنا المآدب والاستقبالات. ولكن ليس على المرء ان يكون شيوعياً ليكتشف في هذه المؤسسة التصنع والفشل. لقد كان نشاطها مقتصراً على حقل العلاقات العامة والدعاية، ولكنها كانت، حتى في هذا المجال، محدودة الأثر، بالاضافة الى ان اهدافها لم تكن واضحة جداً. كانت اللجنة مؤلفة في الغالب

من شيوعيين من البلاد السلافية ، واكثرهم من المهاجرين في موسكو ممن كانوا يعرفون جيداً ان تعديلاً ما يجب اجراؤه بشكل يهدف الى تجميع الانصار حول روسيا الشيوعية ، او على الاقل شل جميع الدعايات السلافية ضد السوفيات .

ولم تكن قيادة اللجنة بارزة . فقد كان رئيسها ، الجنرال غوندوروف ، محدود الاطلاع ، غير مؤهل الى ان يتحدث اليه المرء حتى في ابسط المسائل المتعلقة بكيفية ايجاد التضامن السلافي . اما سكرتير اللجنة ، موشولوف ، فقد كان يتمتع بصلاحية اكثر لمجرد كونه اقرب الى رجال الامن السوفياتي ، مع انه كان يحاول دائماً ان يخفي هذا الشيء في تصرفاته التي لم تكن ناجحة . وقد كان غوندوروف وموشولوف من ضباط الجيش الاحمر ، الا انهما كانا من بين الذين اثبتوا انهم ليسوا صالحين للقتال في الجبهة . وكان يتبين للمرء بسهولة انهما يشغلان مهاماً لا يعتبران انها ضمن اختصاصهم . ولم يكن صالحاً بين اعضاء اللجنة الا امينة السر ، نازاروفا ، وهي امرأة عريضة الاسنان ، تحمل في نفسها ما يشبه الحب للسلافيين المعذبين ، بالرغم من ان نشاطها كان ، كما اصبح معروفاً فيما بعد في يوغوسلافيا ، متصلاً برجال الاستخبارات السوفياتية .

وفي مقر قيادة اللجنة السلافية كان بامكان المرء ان يأكل جيداً ويشرب بنهم اكثر وان يتحدث باستمرار . وكانت ترفع الكؤوس هناك بالتحية — كؤوس ملأى وفارغة لا يختلف بعضها عن بعض ، ولكنها لم تكن جميلة كما كانت الحال ايام القيصرية . وقد صدمت عندما لم اجد اي اثر للحياة في افكار اللجنة . اما بناية اللجنة فقد كانت اشبه ما تكون بشيء قاتم في منتصف مدينة حديثة .

كان عمل اللجنة موقتاً وسطحياً ولا فائدة منه تقريباً . وآمل ان يفهمني القارىء بوضوح ، على اية حال ، اذا اضفت انه مع ان كل هذه الاشياء كانت واضحة بالنسبة لي حتى في ذلك الوقت ، فانني لم اكن مندهشاً لرؤيتها . وفي الحقيقة فقد كانت اللجنة آلة سهلة في يد الحكومة السوفياتية ، غايتها التأثير في الطبقات الرجعية بين السلافيين خارج الاتحاد السوفياتي . وكان المسؤلون فيها يعتمدون على علاقتهم مع رجال المخابرات السريين والعلنيين العاملين للحكومة . ان هذه الاشياء التي رأيتها في اللجنة لم تزعجني ابداً ، بقدر ما ازعجني وجود الجهل والسطحية فيها ، وبشكل خاص ، كونها لم تكن قادرة على ان تفتح لي باب الاتصال بالحكومة السوفياتية او على ايجاد حل للمطالب اليوغوسلافية . لقد تعودت كأي شيوعي آخر ، على الاقتناع بانه لا يمكن ان يكون هناك خلاف بين الاتحاد السوفياتي والآخرين ، وخاصة بين الاتحاد السوفياتي واي حزب ماركسي ثوري كالحزب اليوغوسلافي . وبالرغم من انني لم اجد اللجنة العاملة للوحدة السلافية صالحة لتحقيق الهدف الشيوعي ، الا انني اعتبرتها مقبولة لمجرد ان القيادة السوفياتية كانت تعتبر انها ضرورية . وكذلك اعتبرت علاقات المسؤولين فيها مع رجال المخابرات . ألم أتعلم بان انظر الى هؤلاء كحراس إلهيين للثورة وللاشتراكية ــ « السيف في يد الحزب » ؟

وهنا ينبغي لي ان اشرح سبب اصراري على الوصول الى الدوائر العليا في الحكومة السوفياتية . فبالرغم من حاجتي الى ذلك ، لم اكن ملحاً او حانقاً على الحكومة السوفياتية ، لانني كنت قد تعودت ان ارى في هذه الحكومة شيئاً اكبر من مجرد قيادة الحزب والثورة . كنت ارى فيها السلطة الموجهة للشيوعية كلها . وكنت قد علمت من تيتو وغيره ــ خاصة من الشيوعيين الاجانب ــ بان الانتظار الطويل هو من طبيعة الامور في

موسكو . أما ما كان يحملني الى الاسراع بذلك ، في فروغ صبر ، فهو اهمية متطلبات الثورة اليوغوسلافية .

ومع ان احـــداً لم يتكلم على الثورة ، بمـــا في ذلك الشيوعيون اليوغوسلاف ، فانه كان من الواضح منذ وقت طويل انها قد انطلقت . كانوا في الغرب يكتبون عنها الكثير . ولكنهم في موسكو كانوا يصرون على عدم الاعتراف بها ، حتى اولئك الذين كان عندهم جميع المبررات لهذا الاعتراف . كان حديث الجميع مقتصراً على الكفاح ضد المحتلين الالمـان والتنويه بشكل خاص على الطبيعـة الوطنيـــة لهذا الكفاح ، مع الاشارة الدائمة الى الدور العظيم الذي يقوم به الاتحاد السوفياتي . وكان آخر ما يخطر في بالي هو انكار الدور الهـــام للحزب الشيوعي السوفياتي بالنسبة للشيوعيـة العالميـة او دور الجيش الاحمر في الحرب ضد هتـلر . ولكن الشيوعيين اليوغوسلاف، على ارض بلادي ، كانوا يعتمدون على تجاربهم الخاصة فيشنون الحرب منفردين بغض النظر عن هزائم الجيش الاحمر وانتصاراته الموقتة . وقد كانت تلك الحرب في الوقت نفسه تغيّر بشكل دائم التركيب السياسي والاجتماعي في البلاد . وقد نجحت الثورة اليوغوسلافية خارجياً وداخلياً في العمل دون معونات السياسة الخارجية السوفياتية . وعلى هذا الاساس فهمت اسباب عـــدم التفهم والحواجز المتعـــددة التي كنت اصادفهـا امامي .

والاغرب من ذلـــك كله ان الذين كان يجب ان يفهموا اكثر من سواهم اصروا على عـــدم الفهم . مع انني كنت اعرف ان مناقشة الاوضاع السياسية في موسكو واعطاء القرارات بشأنها ، لا يتم إلا عندما يتكلم ستالين ، او مولوتوف على الاقل . وكان هذا ينطبق ايضاً حتى على

الاشخـــاص البـــارزين كمنويلسكي وديميتروف ، اميني السر السابقين في الكومنترن .

وقد كتب تيتو وكاردالجي ، وغيرهما من الشيوعيين اليوغوسلاف الذين كانوا في موسكو ، بان مانويلسكي كان ميـالاً جداً الى اليوغوسلاف . وكان من الممكن اعتبار هذا الميل شهادة ضده ايام التطهير ، بين عامي ١٩٣٦ و ١٩٣٧ ، التي قضى فيها اكثر الشيوعيين اليوغوسلاف . ولكن الآن ، بعد وقوف اليوغوسلاف في وجه النازيين ، فقد كان ميله يعتبر بعداً في النظر . وعلى اية حال ، فقد مزج مانويلسكي تحمسه لكفاح اليوغوسلاف بنوع من الاعتزاز الشخصي ، مع انه لم يكن يعرف احداً من الزعمـــاء اليوغوسلاف ، ولعله كان يعرف تيتو قليـــلا . وقـد تم اجتماعنـــا مع مانويلسكي في المساء بحضور ج. ف. الكسندروف ، الفيلسوف السوفياتي المعروف ، ورئيس قسم التوجيه والدعاية في اللجنة المركزية .

ولم يترك الكسندروف اي اثر خاص في نفسي غير عـدم الثبـــات والغموض التي كانت صفاته الرئيسية . كان شحوبه وسمنته يدلان على انه لم يغادر مكتبه ابداً الا نادراً للتأكد من بعض الاشياء الضروريـــة . ولم يتكلم الكسندروف ابداً عن اوضاع الثورة اليوغوسلافية الشيوعية ، مع انني في اثناء المحادثة تطرقت الى بعض هذه النقاط ، بدون ان اوضح السبب . وكان من الواضح ان اللجنة الشيوعية لم تكن قد قررت موقفها بعـــد . وهكذا كان كفاحنا ، بالنسبة للدعاية الشيوعية ، كفاحاً ضد المحتلين ، دون اي تأييد في المجالين الداخلي او الخارجي .

حتى مانوليسكي لم يتخذ اي موقف محدد بالرغم من انه ابدى اهتماماً شعورياً . كنت سمعت عن موهبته الخطابية ، ويستطيع المرء ان يتبين هذه الموهبة حتى في مقالاته وتعابيره الحية والمؤثرة .

وفي اثناء وصفي لتطور الثورة في يوغوسلافيا ، اشرت الى انه قد تم تأليف حكومة لها عقلية جديدة ، شبيهة أساسياً بالحكومة السوفياتية . وأشرت بنوع خاص إلى الدور الثوري الذي يقوم بـه الفلاحون . وقد رددت أسباب الثورة اليوغوسلافية الى مجرد علاقـة بين الفلاحين الثوار وبين قوى الطليعة الشيوعية . ومع انهما ، هو والكسندروف ، لم يعارضا ما كنت أقوله ، فانهما لم يشيرا الى انهما يوافقاني على آرائي . وقد توقعت ، عندما اعتبرت ان دور ستالين كان من الطبيعي ان يكون دوراً اساسياً في كل شيء ، ردود فعل من مانويلسكي . ولكن عبثاً . وقد انتهى اجتماعي به وأنا متأثر بحيوية شخصيته ومقدر لتحمسه للكفاح في يوغوسلافيا ، ولكنني على اية حـال كنت مقتنعاً ان مـانويلسكي لم يلعب اي دور في تقرير سياسات موسكو حتى فيما يتعلق منها بيوغوسلافيا .

وعندما كان مانويلسكي يتحدث عن ستالين ، حاول متباهياً ان يطبع حديثه بطوابع « علمية » و « ماركسية » . وقـد جـاء حديثـه عن ستالين بهـذا الشكل : « انت تعرف انه من الصعب على المرء ان يفهم ان شخصاً واحد استطاع ان يلعب مثل هذا الدور الهام في ساعات مصيرية اثناء الحرب ، فهذا يحتاج الى ان تجتمع عدة مواهب في شخص واحد : رجل دولة ، ومفكر ، وجندي ! » .

وقد تأكدت من عـدم أهميـة مركز مانويلسكي فيما بعـد حين عين وزيراً لخارجية أوكرانيا (كان اوكرانياً يهودياً بالولادة) وهذا معناه عزله عن جميع النشاطات السياسية الهامة . والحقيقة هي انه ، باعتباره سكرتير الكومنترن ، كان لعبة طيعة في يد ستالين ، لمجرد انه لم يكن يتمتع بماضٍ بلشفي . فقد كان ، فيما مضى ، ينتمي الى جمعية تسمى « مزهريونتسي » بقيادة تروتسكي ، ولم تنضم هذه الجمعية إلى البلاشفة إلا عند نشوب ثورة ١٩١٧ .

رايته عام ١٩٤٩ في الامم المتحدة . فوقف هناك باسم أوكرانيا ضد « الاستعماريين » و « اتباع تيتو الفاشيست » . ولم يكن قد بقي من موهبته الخطابية سوى اهتزازات كلامية ، أما تفكيره المؤثر فقد تحول الى صناعة لفظية . لقد افقده هبوطه على السلم التدريجي السوفياتي جميع صفاته القديمة .

أما بالنسبة لديميتروف فقد كان الامر مختلفاً . لقد اجتمعت به ثلاث مرات اثناء اقامتي : مرتين في مستشفى الحكومة السوفياتية والمرة الثالثة في فيلته بالقرب من موسكو . وفي كل مرة كان يصدمني بكونه رجلاً مريضاً . كانت أنفاسه متقطعة ، ولون بشرته الصفراء والحمراء تشير الى صحة متدهورة . ولكن أفكاره كانت منطلقة ومتوهجة ، بعكس حركاته البطيئة المتعبة . ومع ان ديميتروف لم يفصح عن كل افكاره فقد كانت محادثته صريحة وثابتة . ولا يمكن القول انه لم يدرك حقيقة الوضع في يوغوسلافيا ، مع انه كان هو ايضاً يعتقد ان من السابق لأوانه اعتبار هذا الوضع شيوعياً ، بسبب العلاقات بين الشرق والغرب . وقد شعرت أنا ايضاً ان حجر مجهوداتنا الأساسية في الدعاية يجب ان تركز على الكفاح ضد المحتل ، ولذلك فانه يجب ان لا نشدد على طبيعة كفاحنا الشيوعية . غير انه كان من المهم جداً بالنسبة لي ان يدرك الزعماء السوفيات ، وديميتروف ايضاً ــ خاصة فيما يتعلق بيوغوسلافيا ــ عدم جدوى الأصرار على قيام أئتلاف بين الأحزاب الشيوعية والبرجوازية. فلقد دلت الحرب الشاملة والحرب الأهلية ان الحزب الشيوعي هو القوة السياسية الوحيدة . وكان معنى هذا الرأي عدم الاعتراف بالحكومة الملكية اليوغوسلافية في المنفي ، وبالتالي عدم الاعتراف بالملكية اليوغوسلافية نفسها .

ثم شرحت لديميتروف تطورات الموقف في يوغوسلافيا .

وقد اعترف دون تردد انه لم يكن ينتظر ان يثبت الحزب اليوغوسلافي انه اكثر القوى نفوذاً ونشاطاً ، بل كان يعلق اكبر الآمال على الحزب الفرنسي . واعاد ديميتروف الى الذاكرة ان تيتو ، عندما غادر موسكو في نهاية عام ١٩٣٩ ، اقسم ان الحزب اليوغوسلافي سيزيل الشكوك التي اثارها حوله الخصوم وانه سيثبت انه جدير بالاسم الذي يحمله . ولكن ديميتروف نصح تيتو بألا يقسم وبأن يكتفي بالعمل بحكمة ونشاط . واضاف ديميتروف قائلا : « انت تعرف انه عندما حان الوقت لتعيين سكرتير للحزب اليوغوسلافي ، كان هناك بعض التردد ، ولكنني كنت الى جانب والتر – اي جوزيف بروز كما كان اسمه في الحزب ، والذي اصبح فيما بعد معروفاً باسم تيتو . فقد بدا لي رجلاً صلباً وجدياً . وانا سعيد لانني لم اسيء الاختيار . »

ونوه ديميتروف ، مع بعض الاعتذار ، بان الحكومة السوفياتية لم تكن في وضع يمكنها من مساعدة الفلاحين اليوغوسلاف في ساعات الشدة . وقد عمل هو نفسه على ان يجعل ستالين يهتم بهذا الامر ، وهذا صحيح . ففي ١٩٤١ ــ ١٩٤٢ حاول طيارون سوفيات الدخول الى قواعد الفلاحين اليوغوسلاف ، مع بعض المهاجرين اليوغوسلاف الذين ادركهم الحنين الى الوطن ، إلا أنهم هلكوا جميعاً في الجليد .

ونوه ديميتروف ايضاً بمفاوضاتنا مع الالمان حول مبادلة الاسرى ، فقال : « كنا خائفين عليكم ، ولكن النتيجة جاءت لحسن الحظ كما هو مطلوب . »

ولم اظهر اي رد فعل لذلك ، ولم اضف اي شيء الى ما قاله . فهو لم يصر على الدخول في التفاصيل . ولم يصرّ في الحقيقة على أي

شيء . كان قد تم حل الكومنترن ، واصبح عمله مقتصراً على جمع المعلومات عن الاحزاب الشيوعية وتقديم النصح للحكومة السوفياتية وللحزب .

واخبرني ديميتروف كيف نشأت فكرة حل الكومنترن . كان ذلك في وقت كانت فيه دول البلطيق ملحقة بالاتحاد السوفياتي ، وكان من الواضح ، حتى في ذلك الحين ، ان القوة الاساسية لانتشار الشيوعية هي الاتحاد السوفياتي ، ولذلك اقتضى ان تجمع حولها جميع القوى الاخرى . وقد تأجل حل الكومنترن بسبب الوضع الدولي ، وذلك لتجنب الاعتقاد بان حله جاء تحت ضغط الالمان ، الذين لم تكن العلاقات سيئة معهم في ذلك الحين .

وكان ديميتروف من الاشخاص الذين يتمتعون بتقدير ستالين ، فضلاً عن انه كان الزعيم المطلق للحركة الشيوعية البلغارية . وقد تأكدت من ذلك في اجتماعين آخرين مع ديميتروف : في الاجتماع الاول شرحت حقيقة الاوضاع في يوغوسلافيا لاعضاء اللجنة المركزية البلغارية ، وفي لاجتماع الثاني كان هناك حديث عن تعاون بلغاري ــ يوغوسلافي متوقع وحديث عن الكفاح في بلغاريا .

وقد حضر اجتماع اللجنة المركزية البلغارية ، الى جانب ديميتروف ، اشخاص آخرون وهم : كولاروف ، سارفانكوف ، وغيرهما . وكان سارفانكوف قد رحب بي في زيارتي الاولى . وقد بقي في ذلك الاجتماع صامتاً ، ومع ذلك تمكنت من تكوين فكرة اخرى عنه فيما بعد . وقد علمت من فالموفيتش وغيره ان سارفانكوف كان صهر ديميتروف ، وكان معرضاً للقتل في عمليات التطهير الا انه لجأ الى ديميتروف ، فتدخل ديميتروف

مع دائرة البوليس وانتهى كل شيء على ما يرام .

كان التطهير موجهاً بشكل خاص الى الشيوعيين المهاجرين . واذ كانوا اعضاء احزاب غير شرعية ، فلم يكن امامهم إلا اللجوء الى الاتحاد السوفياتي . اما المهاجرون البلغاريون فقد كانوا سعداء بسبب وجود ديميتروف في مركز سكرتارية الكومنترن متمتعاً بصلاحيات واسعة . لقد انقذ ديميتروف الكثير منهم . ولم يكن هناك من يحمي اليوغوسلاف . اضف الى ذلك ان كلا منهم كان يحفر قبراً للآخر خلال تسابقهم على الفوز بالسلطة في الحزب وخلال حماسهم لاثبات طاعتهم لستالين ولللينينية .

كان الهرم يبدو واضحاً على كولاروف ، بعد ان بلغ سن السبعين . ولذلك فلم يكن نشيطاً في عمله السياسي منذ سنوات . كان يعتبر من البقايا القديمة لآلة الحزب البلغاري . بدأ بالانضمام الى الجناح اليساري للحزب الاشتراكي البلغاري الذي تطور فيما بعد الى الحزب الشيوعي . وقد قاوم الشيوعيون اليوغوسلاف بالسلاح عام ١٩٢٣ جنود الجنرال تسانكوف الذين كانوا قد قاموا بانقلاب وقتلوا الزعيم الفلاحي الكسندر اسطامبولسكي .

كان لكولاروف رأس كبير . وكان تركياً اكثر منه سلافياً ، إلا ان افكاره كانت من النوع القديم . وأقول دون تردد انها كانت افكاراً من النوع الذي لا يؤدي الى نتيجة . ولم يكن وصفي للكفاح في يوغوسلافيا أمام كولاروف مجرد تحليل ، وانما كان ايضاً صورة مروعة للمجازر والخراب . اذ لم يبق من العشرة آلاف عضو في الحزب ، قبل اعلان الحرب ، أكثر من الفي عضو ، بينما قدرت الخسائر الحاضرة من الجنود والشعب بحوالي مليون ومائتي ألف . ولم يكن أمام كولاروف

بعد كل هذا الشرح إلا ان يسألني سؤالاً كهذا : « هل تعتقد ان اللغة الميسدونية قريبة من اللغة البلغارية او الصربية »؟

وربما اظهرت الكثير من الغضب عندما أجبت كولاروف : « لا ادري اذا كانت اللغة الميسدونية قريبة من اللغة البلغارية او الصربية ، ولكن الميسدونيين ليسوا بلغاريين وليست ميسدونيا بلغاريا » . ولم يترك هذا أثراً حسناً لدى ديميتروف ، فاحمر وجهه وحرك يده قائلاً : « ليس هذا شيئاً مهماً » . ثم انتقل الى موضوع آخر .

ولم أعد اذكر الآن من حضر الاجتماع الثالث مع ديميتروف . لقد ذهب ذلك مع الريح ، ولكن من المؤكد ان سارفانكوف لم يكن غائباً . وقد عقد الاجتماع بمناسبة عودتي الى يوغوسلافيا في بداية حزيران ١٩٤٤ . وكان هذا الاجتماع مخصصاً للتعاون بين الشيوعيين واليوغوسلاف والبلغاريين ، الا ان مناقشة حتى هذا الموضوع كانت عديمة الفائدة ، لانه لم يكن لدى البلغاريين وحدات من الفلاحين في ذلك الحين .

وقد اصريت على ان العمليات العسكرية وايجاد الوحدات القروية في بلغاريا يجب أن تكون بداية العمل ، ووصفت الفكرة القائلة بأن ثورة قد تحدث في الجيش الملكي البلغاري بأنها مجرد أوهام ، مستنداً في ذلك الى التجربة اليوغوسلافية في هذا المجال . ففي تلك التجربة لم يكن مع الفلاحين سوى بعض الأفراد من الضباط ، في حين انه كان على الحزب الشيوعي ان يوجد بعض الوحدات الصغيرة خلال الكفاح العنيد . وكان من الواضح ان ديميتروف ايضاً من المشاركين في هذا الرأي ، بالرغم من عدم موافقته على ان ايجاد وحدات من الفلاحين يجب ان يعمل لها بنشاط . وكان جلياً انه كان يعرف شيئاً لم أكن أعرفه . فعندما اصريت على

انه كان هناك ، حتى في يوغوسلافيا ، حيث قضى الاحتلال على جهاز الدولة القديم ، حاجة لوقت طويل الى تجميع بقايا ذلك الجهاز ، قطع حديثي قائلا : « خلال ثلاثة او أربعة شهور ستنشب ثورة في بلغاريا بأي شكل من الاشكال ، والجيش الأحمر سيكون قريباً على حدودها ! »

ومع ان بلغاريا لم تكن بحالة حرب مع الاتحاد السوفياتي ، فقد كان من الواضح ان ديميتروف كان يميـل الى اعتبار الجيش الأحمر الحكم الفاصل . بالطبع ، لم يصرح ، بصورة مباشرة ، بان الجيش الأحمر سوف يدخل بلغاريا ، ولكنه كان واثقاً من انه يعرف ان ذلك سوف يحدث ، فأعطاني بذلك أول خيط من معلوماتـه . وقد جعلت تنبؤات ديميتروف وآراؤه من اصراري على عمليات الفلاحين والوحدات شيئاً لا معنى ولا أهمية له ، وانتهت المحادثة الى مجرد تبادل آراء وتمنيات لتيتو وللمكافحين اليوغوسلاف .

ولعله من الأهمية تسجيل موقف ديميتروف تجاه ستالين . فقد كان هو ايضاً يتحدث عنه باعجاب واحترام ، ولكن دون اي افتخار . فكأنما كانت علاقته مع ستالين مجرد علاقة ثائر يتمشى نظامياً مع قائده ، ولكنه كان ثائراً يعيش افكاره الخاصة . وقد شدد ديميتروف بنوع خاص على دور ستالين في الحرب .

وقص علي ديميتروف انه « عندما كان الألمان خارج موسكو ، انتشرت موجة من الشكوك والأوهام . وانسحبت الحكومة السوفياتية إلى تيوبيدشاق . إلا ان ستالين بقي في موسكو . كنت معه في ذلك الحين ، في الكرملين . كانوا يأخذون بعض الأرشيف من الكرملين . واقترحت على ستالين ان يوجه الكومنترن انذاراً الى الجنود الألمان . فوافق ، مع

انه لم يكن مقتنعاً بجدوى ذلك . وبعد وقت قليـل ، كان علي بدوري ان اغادر موسكو . ولم يغادرها ستالين ، بل كان مصمماً على الدفاع عنها . وفي تلك اللحظة المصيرية اجرى عرضـاً كبيراً في الساحة الحمراء بمناسبة ثورة اوكتوبر . كانت الفرق امامه تتجه نحو الجبهـة . ولا يستطيع المرء ان يتصور كم كان تقدير الناس كبيراً ، من الوجهة المعنويـة ، عندمـا عرفوا ان ستالين موجود في موسكوا وعندما سمعوا كلماتـه . ففي تلك اللحظات استعادوا ايمانهم وزادت ثقتهم بنفوسهم ، وهذا مـا كان اكثر أهمية من جيش كبير . »

وقـد تعرفت الى زوجة ديميتروف في تلك المناسبة ، وهي امرأة المانية . الأمر الذي ظل طي الكتمان بسبب شعور الروس العدائي ضـد الالمـان .

كانت الفيللا التي يعيش فيها ديمتروف انيقة جداً . كان فيها كل شيء ما عدا المرح . فقد مات ابن ديمتروف الوحيد وبقيت صورته معلقة في غرفة درس والده . إن المحارب يستطيع ان يجمع الى تحمل الهزائم شعور الفرح بالانتصـار . ولكن ديمتروف ، المتقدم في السن والمشرف على نهاية سلطانه ، لم يكن قادراً على الاستمرار في السعادة وعلى انقاذ نفسه من الشفقة الصامتة التي كانت تلاقيه مع كل خطوة .

ـ ٤ ـ

كانت موسكو قد اعلنت قبل وصولنا بشهور ان فرقة يوغوسلافية قد تألفت في الاتحاد السوفياتي. وكانت قد تألفت قبل ذلك وحدات تشيكية وبولندية . ولم نستطع في يوغوسلافيا ان نتصور كيف يمكن لهذا العدد الكبير من اليوغوسلاف ان يكون في الاتحاد السوفياتي في الوقت الذي

قضي فيه على المهاجرين السياسيين في عمليات التطهير .

وفي موسكو ، بدا لي كل شيء واضحاً جلياً الآن : لقد كان معظم المنضوين تحت لواء الفرقة اليوغوسلافية جنوداً سابقين في الفرقة التي شكلها العميل الكرواتي بافيليتس واوفدها الى الالمان ، على الجبهة السوفياتية ، كعربون ولاء وتضامن . على ان الفرقة التي شكلها بافيليتس لم تحظ بأي نجاح ، اذ انها تمزقت ووقعت في اسر السوفيات عند ابواب ستالينغراد . وبعد ان اعمل فيها السوفيات سيف التطهير ، كالمعتاد ، حولوها الى فرقة مناهضة للفاشية بقيادة مازيتش . ثم جمعوا من هنا وهناك بعض اللاجئين السياسيين اليوغوسلاف واسندوا اليهم مناصب سياسية في الفرقة . وقد احتفظ السوفيات بخبرائهم وبرجال أمنهم وبمهمة تدريب اعضاء الفرقة وتوجيههم ومراقبتهم .

ولم يكن هناك أي مشاكل رئيسية تتعلق بالفرقة ، لولا استنكارنا اسجن القائد . ولكن الروس دافعوا عن موقفهم بقولهم إنه انسحب وانه كان يتمتع بتأثير على رجاله . وكان انطباعي الخاص بان « مازيتش » قد أهين وانه كسواه أراد انقاذ نفسه من المعتقل العسكري . وكان هو نفسه غير راض ، على اعتبار ان عمله في الوحدة العسكرية كان لا شيء تقريباً ، أي مجرد عمل شكلي .

كانت الفرقة متمركزة في غابة بالقرب من مدينة « كولومنا » . وكان رجالها يعيشون في منازل مكشوفة بالرغم من شتاء روسيا القاسي . وقد كنت مندهشاً في البداية للنظام الصارم الذي كان يسود الوحدة . وكان هناك شيء من الخلاف بين الاهداف التي كان من المفترض ان تعمل الفرقة لها ، وبين الاسلوب الذي يفترض ان يكون افرادها قد درجوا عليه . ففي وحداتنا الريفية ، كانت روح الصداقة والتعاون منتشرة ، وكان العقاب

ممنوعاً إلا لاسباب النهب وعدم الطاعة . وقد كان هـذا كله يستند الى انقياد أعمى كان من الممكن ان يحسدهم عليه حتى البروسيون ايام فردريك الاول . وقد قمنا باجراءات تفتيشية وألقينا الخطب وناقشنا بعض المسائل العامة . ثم انتهت دورتنا مع الضباط في مناسبة سكروا فيها على انخـاب تيتو وستالين ، وكل منهم يعانق الآخر باسم الاخوة السلافية .

كان من أولى واجباتنا ان نقوم بصنع الميداليات الأولى ليوغوسلافيا الجديدة . وقد صادفنا من الروس تفهماً كاملاً . وإذا كانت الميداليات – وخاصة ميدالية عام ١٩٤١ التذكارية – لم تصنع جيـداً ، فذلك لا يعود الى خطأ الصناعة السوفياتية بقـدر ما يعود الى طبيعتنا المتواضعة والى ضعف نوعية التصاميم التي جئنا بها من يوغوسلافيا .

اما الإشراف على الوحدات الاجنبيـة فقـد تولاه الجنرال زوكوف مدير المخابرات السرية . وهو شاب طويل القـامة أصفر الوجه ، أشقر الشعر . ولم يكن زوكوف بعيداً من المرح وروح السخرية ، وهي صفات لم تكن نادرة بين رجال المخابرات السريـة . ولقد قال لي في ما يتعلق بالفرقة اليوغوسلافية : « إنها فرقـة لا بأس بها اذا اعتبرنا المعدات التي تستعملها » . وكان هـذا صحيحاً . وإذا حصل فيما بعـد ان يوغوسلافيا لم تتفوق في حربها ضد الألمان ، فإن هذا لا يجوز ان يرد الى نوعيـة الرجال المحاربين بقدر ما يجب ان يرد الى ضعف التنظيم وضعف الخبرة في جيش يختلف عن الجيش السوفياتي ، وفي ظروف حربيـة تختلف عن ظروف الحرب في الجبهة الشرقية .

وقد أقام الجنرال زوكوف حفلة استقبال على شرفنا . وفيها عرض الملحق العسكري المكسيكي ، في اثناء محادثتي معه ، تقديم المساعدة . إلاّ أننا لسوء

الحظ لم نستطع ان نتصور كيف يمكن ان تصل هذه المساعدة الى جنودنا في يوغوسلافيا .

وقبل مغادرتي موسكو كنت ضيف الجنرال زوكوف في حفلة غداء . كان يعيش مع زوجته في شقة مؤلفة من غرفتين صغيرتين . وكان كل ما فيها مريحـاً وبسيطاً ، مع انه بدا فخماً بالنسبة للحيـاة في موسكو وخاصة اثناء الحرب . لقد كان زوكوف موظفاً نشيطاً في الحكومة ، وكان مقتنعاً ، عن خبرة ، بان تحقيق الشيوعية يتم بالقوة أكثر مما يتم بالفكر . وكانت العلاقة بيننا صحيحة مع بعض التحفظ ، لإنه لم يكن هناك ما يزيل الإختلاف بيننـا في وجهـات النظر . ان الصداقات السياسية تكون حسنة إذا رافقها احترام متبادل للآراء . وقد أهداني زوكوف ، قبل أن أغادر شقته ، مسدساً اتوماتيكياً كهدية متواضعة ، ولكنها هدية مناسبة في وقت الحرب .

ومن ناحية ثانية ، كان أمامي إجتماع من نوع آخر مع رجال المخابرات السرية السوفياتية ، وذلك بواسطة الكابتن كوزوفسكي . وقـد رافقني رجل أنيق قصير القامة لم يخفِ عني أنه من رجال المباحث . كانت تنتظرنا سيارة بالشارع المجاور ، فاستقلتنا الى شارع آخر لتضعنا في شارع آخر مـن المدينة الضخمة ، ومن هناك مشينا الى شارع ثالث ، حيث القى الينا أحدهم بمفتاح أصفر من نافذة شقة كبرى في احدى البنايات ، استطعنـا بواسطته ان ندخل شقة فخمة واسعة في الطابق الثالث .

كانت صاحبـة الشقة ـ اذا كانت هي صاحبتها ـ واحـدة من شقراوات الشمال . ولم يكن لجمالها اي تأثير ، في تلك اللحظة على الأقل.

وقد لاحظت انها كانت اكثر أهمية من الرجل الذي جاء بي الى هناك . وسرعان ما قامت بطرح بعض الأسئلة وتسجيل اجوبتي عليها . كان الاهتمام برجال مجالس الحزب الشيوعي أكثر من الاهتمام برجال الاحزاب الاخرى . كنت لا أرتاح لتحقيقات البوليس ، ومع ذلك شعرت أنه من واجبي كشيوعي أن أقدم المعلومات المطلوبة . وإذا حدث أن استدعاني أحد أعضاء اللجنة المركزية للحزب السيوفاتي ، فقد كنت لا أتردد في التلبية ـ ولكن ماذا يريد هؤلاء الناس من معلومات عن الحزب الشيوعي والشيوعيين البارزين في الوقت الذي يجب ان ينحصر فيه عملهم بشن هجوم على اعداء الاتحاد السوفياتي ومثيري الفتن داخل الأحزاب الشيوعية ؟ على انني أجبت على الاسئلة ، متجنباً اي حكم بالنفي او بالتأكيد ، أو اي اشارة الى الصراع الداخلي بنوع خاص . وقد فعلت هذا خاصة لأنني لا أحب ، اخلاقياً ، أن اقول اي شيء ضد رفاقي . وقد لاحظت المرأة استيائي من تدخلها في شؤون عالمي الخاص وآرائي . وقد استهلك هذا النوع من الاسئلة حوالي ساعة ونصف ، ثم انتقلنا الى جو هادىء تحدثنا خلاله عن القهوة والكعك.

كانت اتصالاتي بالشعب السوفياتي عميقة ومباشرة . ففي ذلك الوقت كان من المسموح به لجمهور الشعب في الاتحاد السوفياتي أن يتصل بالأجانب من البلاد الحليفة .

لقد أثرنا فضول الجميع لأنه كان هناك حرب ، وكنا ممثلي الحزب الوحيد للشعب الوحيد الذي أعلن الثورة ضد هتلر . كان الكتّاب يأتون إلينا للاستيحاء ، ومنتجو الأفلام للبحث عن القصص الهامة ، والصحفيون لصياغة المقالات وجمع المعلومات ، والشبان والفتيات لطلب السماح لهم بالدخول الى يوغوسلافيا كمتطوعين .

وقد طلبت مني جريدة البرافدا ، الجريدة اليومية الناطقة باسم الدولة ، ان

أكتب مقالا عن الكفاح في يوغوسلافيا ، كما طلبت جريدة « نوفوفرميا » ان أكتب مقالاً عن تيتو . وكم وجدت صعوبة في كتابة هذين المقالين . وقد حذفت البرافدا كل شيء تقريباً يتعلق بطبيعة الكفاح ونتائجه السياسية . اما الذي بقي من المقال فهو القسم الذي ينسجم مع خط الحزب . كما حذفت البرافدا كل ما يتعلق بجوهر كفاحنا ، أي النظام الجديد والتطورات الاجتماعية . وقد ذهب هذا الحذف الى حد تغيير اسلوبي وازالة كل مقطع مثير ، واختصار الجمل وشطب عبارات بكاملها ، فاتت المقالة جافة مبهمة . وبعد مناقشة مع المحررين ، وافقت على ذلك . فقد كان من التفاهة اعتبار موضوع كهذا امراً مهماً .

أما قضيتي مع نوفوفرميا فقد أدت الى مشاكل أكثر . لم تتدخل هذه الجريدة باسلوبي وطريقتي في التعبير ، ولكنها حذفت كل ما من شأنه ان يؤكد العظمة والأصالة في شخصية تيتو . وفي اجتماعي الاول مع أحد محرري نوفوفرميا وافقت على بعض هذا التغيير . ولم يحدث إلا في الاجتماع الثاني ، أن وافقت على كل تغيير في مقالتي . وذلك عندما بدا لي واضحاً انه لا يمكن تعظيم انسان في الاتحاد السوفياتي غير ستالين ، وعندما اعترف المحرر صراحة بهذه الحقيقة بقوله : « انها لطريقة رجعية سببها الرفيق ستالين . هكذا تجري الامور هنا . »

كانت زعامة ستالين بالنسبة لي وبالنسبة للشيوعيين اليوغوسلاف قضية لا شك فيها . على انني كنت ، بالرغم من ذلك ، حائراً ومتسائلاً لماذا لا يمتدح الزعماء الشيوعيون الآخرون ـ تيتو ، في هذه الحالة ـ اذا كانوا يستحقون ذلك .

ولا أهمية للقول أن تيتو كان فخوراً جداً بالمقالة ، وان الصحافة

السوفياتية ، على ما أعلم ، لم تنشر ابداً مدحاً بأي شخص آخر ، كهذا المدح .

وهذا يمكن تبريره بحماسة الرأي العام السوفياتي – أي رأي الحزب ، لانه لا يوجد رأي آخر – للكفاح اليوغوسلافي . وهناك سبب آخر هو ان جو المجتمع السوفياتي قد تغير أثناء الحرب .

وإنني اذ انظر الآن الى الماضي أستطيع ان أقول ان الاقتناع كان شاملاً في الاتحاد السوفياتي ، بعد حرب أثبتت تكريس الشعب السوفياتي نفسه لارضه وللانتصارات الأساسية التي حققتها الثورة ، بأنه لم يعد هناك سبب للحواجز السياسية وللاحتكارات العقائدية بواسطة مجموعة صغيرة من الزعماء وخاصة بواسطة زعيم واحد . كان العالم يتغير تدريجياً أمام أعين الشعب السوفياتي ، فبدا من الواضح ان الاتحاد السوفياتي لن يكون البلد الاشتراكي الوحيد في العالم بعد ان بدأت تظهر في المسرح شخصيات ثورية وزعماء ثوريون .

ولم يؤخر هذا الجو وهذه الآراء عمل الزعماء السوفيات في ذلك الحين ، بل على العكس فقد عزز مجهود الحرب . ولم يكن هناك أي سبب يدفع الزعماء السوفيات أنفسهم الى الوقوف في وجه هذا التيار . ثم أن تيتو ، أو بالاحرى كفاح اليوغوسلاف ، كان يؤدي تدريجياً الى تغيرات في البلقان وفي أوروبا الوسطى ، وهي تغيرات لم تضعف مركز الاتحاد السوفياتي بل أدّت الى تقويته . وهكذا لم يكن هناك من مبرر لعدم تشجيع اليوغوسلاف ومساعدتهم .

ثم انه كان هناك عنصر أكثر أهمية في هذه القضية بالذات . لقد شعر الشيوعيون السوفيات انهم كانوا وحيدين في كفاحهم ،

بالرغم من تحالفهم مع الديمقراطيات الغربيــة . كانوا يحاربون من أجل الحفاظ على مصيرهم ، وبالتالي على طريقتهم في الحياة . وكان الرجل العادي والجندي البسيط يشعر بوحدته ، وذلك لسبب عدم وجود جبهة ثانية ، أي عـدم وجود معارك رئيسية في الغرب ، في وقت كان النزاع مصيرياً بالنسبة لمستقبل الشعب السوفياتي .

لقد تأثرت جداً ، كشيوعي وكيوغوسلافي ، بالحب والتقدير اللذين وجدتهما في كل مكان وخاصة في الجيش الأحمر . وقد كتبت بوضوح تام في سجل الضيوف ، في معرض للأسلحة الألمانية المصادرة : « إنني فخور لأنه لا يوجد هنا أسلحة من يوغوسلافيا ! » فقد كان هناك أسلحة من أوروبا كلها .

وأقترح علينا أن نزور جنوب غربي الجبهة ـ الجبهة الأوكرانية الثانية ـ التي كانت بقيادة المارشال ا. س. كونيف . وقد طرنا الى « يومــان » وهي بلدة صغيرة في أوكرانيا ، وهناك سرنا في أرض خراب أجهزت عليها عوامل الحرب والحقد البشري .

وقد جهز المسؤولون المحليون السوفيات أشياء خاصة لنا ، كما هيأوا لنا الإجتماع ببعض الشخصيات المهمة في المدينة . أمّــا العشاء الذي تناولناه في بناية مهملة فلم يكن أمراً مسراً أبـداً . وأمـا أسقف البلدة وسكرتير الحزب فيهــا فإنهما لم يستطيعا أن يخفيــا استياءهما بالرغم من أنهما كانا يتحدثان إلى أجانب ، وبالرغم من أن كلاً منهما كان يحارب بطريقتــه الخاصة ضد الألمان .

كنت قد علمت سابقاً من الرسميين السوفيات انه عنـد نشوب الحرب كان البطريرك الروسي يوزع منشورات ضد المحتلين الالمــان ، دون

استشارة الحكومة . وقد كانت هذه النداءات مغرية في الظاهر ، إذ ساعدت ، بلغة الدعاية السوفياتية ، على استعادة الوطنية الروسية الدينيــة . وقــد سارعت الحكومة السوفياتية الى تبني هذه الحركة ، فبدأت بطلب مناصرة الكنيسة بالرغم من أنها كانت تعتبر الكنيسة آخر ما بقي من النظام القديم . وخلال ويلات الحرب ، بُعث الدين من جديد ووضع في الطليعة . وكان الجنرال كورنيف، رئيس البعثة السوفياتية في يوغوسلافية، يقص علينا دائماً كيف أن أناساً كثيرين ، وبينهم مسؤولون ، اعتبروا أن العودة إلى الأرثوذكسية ، خلال خطر داهم من الألمان ، عاملا روحياً ضرورياً . وكان الجنرال كورنيف يقول انه لا يمانع في انقاذ روسيا بواسطة الارثوذكسية إذا كان لا مفر من ذلك .

قد يبدو هذا غير معقول اليوم ، ولكن فقط لاولئك الذين لا يدركون قساوة العواصف التي واجهت الشعب السوفياتي ، ولأولئك الذين لا يدركون ان كل مجتمع إنساني لا مفر له من أن يتبنى وينمي هذه الأفكار التي هي في وقت من الأوقات أصلح الأفكار للحفاظ على وجود المجتمع وتطويره . لم يكن الجنرال كورنيف غبياً ، لقد كرس نفسه للنظام السوفياتي وللشيوعية . أما بالنسبة لإنسان مثلي ، نشأ مع الحركة الثورية وكافح من أجل الحياة بالإصرار على الصفاء العقائدي ، فإن نظريات كورنيف ، وان كانت لا تجدي نفعاً ، لم ترق لي . هكذا انتشرت الوطنية الروسية ، حتى لا نقول القومية الروسية ـ عندما رفع أسقف بومان كأسه تقديراً لستالين بإعتباره « موحد الأراضي الروسية » . وقد أدرك ستالين بحدسه أن حكومته ونظامه الإجتماعي لا يمكنهما أن يقفا في وجه عواصف الجيش الألماني إلاّ إذا اعتمدا على الموحيات القديمة

والتقاليد الروسية القديمة .

وقد استاء السكرتير السوفياتي في البلدة من مهارة الأسقف وتأكيده الدائم على دور الكنيسة ، وخاصة على الموقف الجماعي الذي وقفه الشعب . كانت الوحدة القروية التي قادها قليلة العدد لدرجة أنه لم ينجح كثيراً في مواجهة قوى الأمن الاوكرانية المؤيدة للألمان : وهنا ليس من المعقول عدم الإشارة إلى موقف الاوكرانيين من الحرب ومن الإنتصارات السوفياتية . لقد اظهروا عدم اهتمام بها . مع أن الضباط الذين كنا على اتصال بهم قد عوضوا عن سلوك الاوكرانيين . وقد كان سائقنا الروسي لا ينفك يلعن الأوكرانيين لأنهم لم يقاوموا جيداً ، فتوجب على الروس الآن ان يحرروهم .

وفي اليوم التالي عبرنا أوحال الربيع الأوكراني بسيارات الشحن التابعة للجيش الأحمر المنتصر . وقد أضاف مشهد المعدات الألمانية المحطمة التي صادفناها في طريقنا ، الكثير الى الصورة التي كنا نحملها عن مهارة الجيش الاحمر وقوته . وقد أعجبنا بنوع خاص بالصراحة ونكران الذات في الجندي السوفياتي الذي استطاع أن يتحمل قساوة الأيام والاسابيع ، ونصفه غارق في الوحل ، دون خبز وبلا نوم ، تحت وابل من النار والفولاذ يصبه الجزارون الالمان البائسون .

وإذا وضعت جانباً المشاعر الشخصية ، التعصب والحماسة الرومانسية ، فإنني استطيع أن أقدر كثيراً صفات الجيش الأحمر وخاصة القلب الروسي لهذا الجيش . صحيح أن القواد السوفيات والجنود وصف الضباط تلقوا نوعاً واحداً من الثقافة السياسية الى حد بعيد ، إلا انهم كانوا في المجالات الاخرى يعملون على تنمية المبادرة الذاتية الى جانب التثقيف الشخصي .

كان النظام قاسياً جداً ولا يتحمل أي سؤال ولكنه كان نظاماً معقولاً . كان منسجماً مع المبادىء والمهمات الأساسية . ولم يكن الضباط السوفيات ماهرين فنياً فقط ، بل كانوا أيضاً اكثر رجال النخبة السوفياتية موهبة . ومع انهم تلقوا نسبياً رواتب عالية ، إلا انهم لم يشكلوا طبقة خاصة . وبالرغم من ان العقيدة الماركسية ليست مطلوبة منهم جداً ، فقد كان من المتوقع منهم دائماً اكثر من سواهم ان يكونوا شجعاناً وان لا يتراجعوا في المعركة . ولقد اجرى ستالين سلسلة من إجراءات التطهير في القيادة العليا ، إلا ان هذا لم يكن له اثر كبير كما شاع ، لإنه لم يتردد في الوقت نفسه في ترقية الشبان والرجال الموهبين . وكان كل ضابط من الذين كانوا مخلصين له ولإهدافه يعلم جيداً ان طموحه يلاقي كل تشجيع . وقد عززت السرعة التي رافقت تنقلاته في القيـادة اثناء الحرب ، مقدرته على فتح مجالات جديدة امام الرجال الموهبين . وقد سلك ستالين طريقين مختلفين : اوجد في الجيش الطاعة التامة للحكومة وللحزب وله شخصياً ، ثم انه لم يوفر في الوقت نفسه شيئاً لتحقيق الاستعداد العسكري الى جانب مستوى عال من الحياة للجيش وترقيات سريعة لأفضل رجاله .

كان ذلك في الجيش الاحمر ، عندمـــا سمعت لاول مرة من احد قواد الجيش فكرة غريبة بالنسبة لي ، ولكنهـــا صريحة : حين تنتصر الشيوعية في العالم كله ، قال القائد ، فان الحرب عند ذلك ستأخذ شكلها السيء النهائي . وبموجب النظريات الماركسية التي يعرفها القادة السوفيات مثلما اعرفها ، فان الحروب هي نتيجة صراع الطبقات . واذ ان الشيوعية سوف تزيل الطبقات ، فان الحاجة الى رجال يشنون الحرب سوف تزول ايضاً . الا اننا كنا جميعـــاً قد بدأنا ندرك بعض الحقائق المتعلقة بمآسي الحرب : ان الصراعـــات البشرية اكثر مرارة بمـــا لا يقـاس ،

عندما يصبح جميع الناس تحت نظام اجتماعي واحـــد . وقد كانت هذه الفكرة بين الضباط السوفيات المتمرسين بالماركسية مجرد فكرة عرضية ، اما انا فانني لم انسها ابداً ولم اكن لاعتبرها فكرة عادية .

كنا قد اصبحنا معتادين على كل شي في الاتحاد السوفياتي ، ومع ذلك فاننا لم نكن قادرين على تجنب الصدمة التي واجهناها في الوليمة التي اقيمت على شرفنا بمناسبة مغادرتنا الجبهـــة ، في مقر قيادة المارشال كونييف في احدى قرى « بيساربيا » . وقد شعرنا بهذه الصدمة باعتبارنا ابنـاء الحزب والثورة ، الذين اكتسبوا مع الوقت ثقة بانفسهم وثقة الشعب بصوفيتهم النادرة المثيل .

لقد استعملت الفتيات اللواتي كن في غايـة الجمال والروعة مضيفات في الحفلة ، فاحضرن لنـــا كميات كبيرة من المآكل كالكافيار والسلمون والخيار الطازج والباذنجان ولحوم الغنم والخنازير وفطاير اللحم الساخنـة ومختلف انواع الاجبان والبفتيك ، واخيراً الكعك والفواكه التي احتشدت على الطاولة .

وكان المرء يستطيع ان يتبين ، بعد جهد ، انسجام الضباط السوفيات مع المناسبة . فقد اقبلوا على الشراب بنهم . في حين اقبل اليوغوسلاف على المأدبة وكأنهم يعيشون تجربـــة كبرى . كان عليهم ان يشربوا ، بالرغم من ان ذلك لم يكن منسجماً مع « مناقبيتهم الشيوعية » ، أي مع مثل جيشهم وحزبهم العليا . ومع ذلك فقد اجسنوا التصرف بالرغم من انهم لم يكونوا معتادين على الكحول .

أما انا فقد كنت معتاداً على الاقلال والحذر مـن الشراب ، معتذراً دائماً بآلام في رأسي . وقد صادف ان هـــذه الآلام فاجأتني حقاً في تلك الحفلة . أما قائدنا « ترزينش » ، فقد بـــدا محزناً في الاحتفال . كان

عليه ان يشرب بالرغم من عدم شعوره بميل الى الشراب ، لأنه لم يكن يعرف كيف يخيب أمل رفيق سوفياتي ، اذا رفع هذا الرفيق كأسه ليشرب نخب ستالين بعد لحظة من نخب تيتو .

حتى مرافقنا بدا لي محزناً ايضاً . كان كولونيلا سوفياتياً . ولم ينتبه الماريشال وضباطه الى ان هذا الكولونيل كان ضعيفاً . فقد جيء به من الجبهة ، بعد اصابته بجراح ، ليعمل في القيادة . كان الماريشال يكتفي باعطائه الأوامر بهذه الطريقة : « كولونيل ! اشرب مائة غرام من الفودكا نخب نجاح الجبهة الاوكرانية الثانية » . ويعم الصمت . بينما تتجه انظار الجميع نحو الكولونيل . وقد رغبت في ان اتدخل لصالحه ، الا انه نهض ووقف مستعداً ثم شرب ! ثم ما لبثت بعض نقاط من العرق ان ان بللت جبهته الصفراء العالية .

ومع كل ذلك ، فقد كان هناك من لم يشرب : منهم الذين كانوا في مهمة وعلى اتصال بالجبهة . كذلك لم يشرب ضباط الاركان . ويقال انه اثناء معركة فنلندا اقترح جدانوف على ستالين ان يوافق على اعطاء مائة غرام من الفودكا يومياً لكل جندي ، ومنذ ذلك الحين درجت هذه العادة في الجيش الأحمر ، مع الاشارة إلى ان النسبة كانت تزداد بعد القيام بالهجوم . وقد قيل لنا آنذاك ان « الجنود كانوا ، بهذه الطريقة ، يشعرون بارتياح أكثر » !

حتى الماريشال كونييف لم يشرب . فلم يكن هناك من هو أعلى منه رتبة ليعطيه أمراً بذلك ! بالاضافة إلى انه كان يشكو من بعض المتاعب ، فمنعه اطباؤه من الشرب . كان رجلا اشقر ، طويل القامة يبلغ الخمسين من العمر ، له وجه حيوي تبدو منه العظام . ومع ان النهم كان يغريه على الشرب ، لأنه كان حريصاً على « الفلسفة » الرسمية القائلة : « ان على

الانسان ان يتمتع بحياته الآن وبعد الآن ! » فانه كان أعلى من هـذا المستوى ، شديد الثقة بنفسه وبجنوده في الجبهة .

وكان قد رافقنا المؤلف « بوريس بولافوي » إلى الجبهة كمراسل لجريدة « البرافدا » . ومع انـه كان متحمساً جداً وبسهولة لبطولة وفضـائل بلاده ، فانه سرد لنـا حكاية عن تفوق كونييف في التفكير والجرأة . لقد وجد كونييف نفسه مرة في موقف حرج بالنسبة للمدافع الالمانيـة التي تواجهه ، وكان يظهر نفسه كأنه يستعرض الامور من وراء المنظار ، إلا انه كان في الحقيقـة ينظر بطرف عينـه لـيرى كيف يواجه جنوده الخطر . كان الجنود واثقين آنه سوف يخلع من القيادة اذا اظهر اي تردد ، ولذلك لم يحذره أحد مَن الموت الذي كاد يداهمه . وهكذا سارت الامور. وقد سقط الرجال قتلى وجرحى ، ولكنه لم يترك مكانه في الجبهة إلا بعد انتهاء التفتيش . وفي مناسبة ثانية أصيب كونييف في ساقه ، فخلع الجنود حـذاءه العسكري ولكنه بقي على رأس جنوده .

كان كونييف احـد قادة ستالين في الحرب . ولم يكن من ذلك النوع الذي ينال ترقيات سريعة ، كروكوسوفسكي مثلاً ، لان وجوده في الوظيفة لم يكن كهذا مفاجئاً وعاصفاً . لقـد التحق بالجيش الاحمر ، بعد الثورة مباشرة ، كعامل بسيط ، ولكنه ما لبث ان تقدم في الرتب وفي مدارس الجيش . وكذلك نجح في مهنته في المعارك ايضاً ، وكانت ذلك امراً عادياً في الحرب العالمية الثانية ، تحت قيادة ستالين .

وقـد شرح لي كونييف ببضع كلمات سير معركـة كورسن ـ تشافتشانكوفسكي ، التي تقارن عادة في الاتحاد السوفياتي بمعركة ستالينغراد . فرسم كونييف في حديثه صورة سريعة لمأساة المانيـا الأخيرة : لقـد رفضت المانيا التسليم ، فحوصر حوالي مئة الف الماني ولم يستسلموا ، فبعثرت

الدبابات اسلحتهم . ثم قضى عليهم الفرسان القوزاق نهائياً . « لقد تركنا للقوزاق حريـة التصرف ، فقطعوا حتى تلك الايـدي التي ارتفعت للتسليم » .

وقد قال المارشال هذه الكلمات مبتسماً .

أما انا فلا يمكنني القول الآن بانني لم اشعر في تلك اللحظة بالفرح للمصير الذي انتهى اليه الالمان . ففي بلادي ايضاً قامت النـازية ، باسم العنصر المتفوق ، بشن حرب غريبة عن كل الاعتبارات البشريـة . ومع ذلك فقد داخلني آنذاك شعور آخر ــ شعور الرعب من ان ذلك كان يجب ان يكون كذلك .

وقد اغتنمت فرصة جلوسي الى يمين هذه الشخصية المهمة ، لايضاح بعض المسائل التي كانت تهمني بنوع خاص . لماذا نقل فوروشيلوف ، وبوداني ، وقادة آخرون ، ممن رافقوا دخول الاتحاد السوفياتي الحرب ، من مراكز القيادة ؟

فاجاب كونييف : « ان فورشيلوف شخص جريء جداً ، إلا انه لم يكن قادراً على فهم الحرب العصرية . إن مواهبه متعـددة ، إلا انـه كان علينـا ان نربح المعركة . وخلال الحرب الأهلية التي دفعت بفورشيلوف الى الطليعة ، لم يكن لدى الجيش الأحمر بنوع خاص طائرات او دبابات لمواجهة العدو ، في حين أن هـذه الآلات تلعب الدور الحيوي في هذه الحرب . أمـا بوداني فانـه لـم يعرف الكثير ، ولـم يدرس في حياته شيئاً . وكان يظهر نفسه وكأن لا منافس له ، فضلاً عن أنه سمح بارتكاب اخطاء كثيرة . بينما ان تشابوشنيكوف كان ، وما يزال ، ضابطاً فنياً . »

« وستالين ؟ » سألت كونييف .

فاجاب كونييف ، بعد تفكير ، محاولا جهده ان لا يظهر بأنه فوجيء

بالسؤال : « ان موهبة ستالين كلّية . كان قادراً على ان يرى الحرب كلها بوضوح ، وهذا ما ادى الى النجاح » .

ولم يقل أكثر من ذلك . لم يقل شيئاً مما قد يبدو وكأنه تعظيم لستالين . وقد مر مرور الكرام على الجانب العسكري من شخصية ستالين .

لقد كان كونييف شيوعياً قديماً كرس نفسه بثبات للحكومة وللحزب . وكان حريصاً على آرائه في المسائل العسكرية .

وقد قدم كونييف لنا بعض الهدايا : قدم منظاره الخاص لتيتو ؛ وقدم لنا مسدسات . وقد احتفظت بمسدسي حتى صادرته السلطات اليوغوسلافية عند توقيفي عام ١٩٥٦ .

وهكذا كانت الجبهة السوفياتية عامرة بالامثلة على البطولة الشخصية والشجاعة التامة التي تحلى بها الجندي العادي . كانت روسيا في نظرنا آنذاك آخر معقل للمقاومة والارادة لاحراز النصر الاخير .

ـ ٥ ـ

كان ذلك بعد الظهر تقريباً ، وبعد ان انهيت القاء محاضرتي في اللجنة اليوغوسلافية وابتدأت بالاجابة على الاسئلة ، حين همس لي احدهم كي انهي حديثي على الفور بسبب قضية ملحة ومستعجلة . وقد نالت هذه المحاضرة تقديراً خاصاً من اليوغوسلاف والسوفيات معاً . وقد قدمني في بدايتها للجمهور أ . لوزوفسكي مساعد مولوتوف . اذ كان واضحاً ان القضية اليوغوسلافية قد بدأت تحوز على اهتمام الحلفاء .

واعتذرت من الجمهور ، او ان الجمهور قدم عني الاعتذار ، وتركت كل شيء متجهاً مع بعض الاشخاص الى الشارع . وهناك حشروني في سيارة غريبة مع الجنرال تارزيتش . وبعد ان اندفعت بنا السيارة

اخبرني كولونيل من رجـال أمن الدولة اننا ذاهبون لمقـابلة جوزيف فيساريونوفيتش ستالين . وفي ذلك الحين كانت بعثتنا العسكرية قد انتقلت الى فيللا في «سيرابرانيي بور» في ضاحية موسكو . وخطرت في بالي الهدايا التي ننقلها لستالين ، فتذكرت اننا سوف نتأخر اذا ذهبنـا الى مقر البعثة لجلب تلك الهدايا . إلا ان الكولونيل اليقظ كان قد احتاط لذلك ، اذ رأيت الهدايا موضوعـة الى جانبه . وهكذا كان كل شيء على ما يرام ، حتى البستنا العسكرية كنا ما نزال منذ عشرة ايام نلبس ثياباً جديدة مصنوعة في مصنع سوفياتي ، ولم يكن هناك ما يمكن عمله سوى التزام الصمت والاستماع الى الكولونيل والاقتصـار على الاسئلة الضرورية .

كنت قد اعتدت على طرح الاسئلة الضرورية ، إلا انني لم استطـع ان ادفن فرحي الذي كان يتحرك مع كل كياني .

وماذا يمكن ان يكون اكثر اهمية بالنسبة لشيوعي جاء من الحرب ومن الثورة ، من ان يحظى بمقابلة ستالين ؟ كان هـذا اعظم اعتراف ببطولة وآلام محاربينا من الفلاحين ومن افراد الشعب .

كان ستالين في نظر الجميع اكثر من قـائد معركة ــ كان تجسيداً لفكرة ترسم وجودهـا في الادمغة الشيوعية كفكرة صافية تعلو على الخطأ والتقصير . وكان المعركة المنتصرة اليـوم والاخوة البشرية في الغـد . وخطر في بالي انني كنت اول شيوعي يوغوسلافي يحظى بمقابلة ستالين . وكم شعرت بالفرح عندما تذكرت انه سوف يتاح لي ان اخبر رفاقي عن هذا الاجتماع وان اقول شيئاً مـا للمحاربين اليوغوسلاف . وهكذا تبدد ، فجأة ، كل ما كان غير مسر بالنسبة للاتحاد السوفياتي ،

واختفت كل الخلافات التي كانت بيننا وبين الاتحاد السوفياتي امام العظمة والابهة والجمال الذي كانت تظهر امامي .

كيف يمكن لهذه الخلافات ان تنشأ ما دام المهم هو تحقيق هدفنا المشترك ؟

لا بد ان القارىء يعرف انني كنت مؤمناً في ذلك الوقت بان تروتسكي وبوخارين والمعارضين الآخرين في الحزب كانوا جواسيس ومخربين ، وانه لهذا السبب كانت جميع الاجراءات التي اتخذت بحقهم صحيحة . كان مبرر ذلك ، القضاء على الفاسد وابقاء الصحيح ، كما قال ديميتروف مرة في محادثاته مع تيتو . ولذلك اعتبرت جميع الاعمال الوحشية التي ارتكبها ستالين ـ كما صورتها اساليب الدعاية ـ اجراءات ثورية لا مفر من القيام بها .

لا استطيع الآن ان اقول ماذا كان علي ان افعل ، لو عرفت من قبل كل الحقائق عن المحاكمات واجراءات التطهير . بل استطيع ان اقول بثقة تامة ان ضميري كان سيتعرض لازمات شديدة ، ازمات لا استطيع ان اقول انها كانت سوف تحملني على ان لا اكون شيوعياً ، مقتنعاً بشيوعية اكثر مثالية من الشيوعية الحالية . ففي الشيوعية كفكرة مثالية ليس المهم ماذا حدث بل لماذا حدث ؟ بالاضافة الى ان الشيوعية كانت اكثر الافكار عقلانية واشدها ضرورة لاولئك الناس ، من بلادي البائسة المجزأة ، الذين ارادوا خلال القرون الطويلة ان يتخلصوا من الاستعباد والرجعية ويكتشفوا الحقيقة .

لم يكن لدي وقت لأهيء نفسي ، لان السيارة كانت قد وصلت

على مقربة من الكرملين . وهنـــاك تلقانا ضابط آخر ، فاكملت السيارة الطريق خلال ممرات هادئة . ولفت الضابط انتباهنا الى الجرس التذكاري لايفان العظيم ، وشاهدنا على مقربة منه مـدفعاً قديماً . ثم وجدنا انفسنا قرب مدخل بنايـــة منخفضة طويـلة ، كالبنـايات الخاصـــة بالمكاتب والمستشفيات في منتصف القرن التاسع عشر . وهنا ايضاً قابلنا ضابط آخر ، قادنا الى الداخـل حيث خلعنا معاطفنا ومشطنا شعورنا امـــام المرآة ، ثم دخلنا الى مصعد اقلنا الى الطابق الثاني حيث امتد امامنا ممشى طويل يغطيه السجاد الاحمر .

كان الضباط يؤدون التحية لنا عنـد كل منعطف . كانوا جميعاً من الشبان الوسيمين ، تغطي رؤوسهم قبعـــات زرقاء خاصة برجال أمن الدولـــة .

واخيراً ، وصلنا الى مكتب صغير حيث كان الجنرال زوكوف ينتظرنا . وهو رجل عجوز سمين ، قصير القامة . وقد دعانا الى الجلوس في الوقت الذي نهض فيه من وراء الطاولة واتجه نحو الغرفة المجاورة .

حدث كل شيء بسرعة مفاجئة . اذ عـــاد الموظفون الرسميون ليقولوا لنا انه يمكننـا الدخول . ظننت انه كان علي ان امر في ثلاثة أو اربعة مكاتب قبل ان اصل الى ستالين . ولكن عندما فتحت الباب وخطوت الى الداخل ، رأيته قادماً من غرفة صغيرة ظهرت كرة ارضية كبيرة من خلال ابوابهـــا المفتوحة . كان مولوتوف ايضاً هناك ، وبدا سميناً باهت اللون وفي طقم اوروبي ازرق جميل جـــداً . كان يقف وراء طاولة المؤتمرات .

والتقانا ستالين في منتصف الغرفـــة . وكنت اول من اقترب منه ،

فقدمت نفسي اليه . ثم فعل تارزيتش الشيء نفسه ، مضيفاً الى ذلك ذكر رتبته مطولاً بلهجة عسكرية رد عليها مضيفنا ــ بطريقة ساخرة ــ معرفاً نفسه بقوله : « ستالين » !

وقد صافحنا مولوتوف ايضاً ، ثم جلسنا الى الطاولة بحيث كان مولوتوف الى يمين ستالين الذي كان في صدر الطاولة ، بينما كنت مع تارزيتش والجنرال زوكوف ، الى اليسار . لم تكن الغرفة واسعة ، بل طويلة ومحرومة من ألوان الديكور . وفي الزاوية فوق طبقة ليست عريضة كانت هناك صورة لينين . وعلى الحائط ، فوق طاولة المؤتمرات ، بدت صورة « سوفوروف » و « كوتوزوف » في اطارين خشبيين محفورين .

كان ستالين أكثر الموجودين بساطة . لقد ظهر في لباس الماريشالية ، وفي قدميه حذاءان لماعان . ولم يكن على صدره اية مدالية سوى نجمة مذهبة ، ووسام البطولة ، الخاص بالاتحاد السوفياتي ، في الجانب الأيسر من صدره . ولم يكن ستالين على شيء من الاصطناع ، كما لم يكن ذلك « الستالين » المدهش في الصور وفي الاخبار . على انه لم يهدأ للحظة واحدة . كان يدخن غليونه الذي تعلوه اشارة « دونهل » ، المؤسسة الانكليزية . وكان يرسم احياناً بعض الدوائر بقلم ازرق ، حول بعض الكلمات ، ليحدد المواضيع التي ستجري المناقشة فيها ، ثم يشطبها عندما كان الموضوع يشارف على نهايته . وكان كذلك يحرص على الالتفات يمنة ويسرى ، وهو دائم الحراك في كرسيه .

وقد فوجئت أيضاً بأمر آخر . كان جسم ستالين صغيراً وقوامه ضيقاً وقصيراً ، ويده اليسرى وكتفه يابستين . كان كرشه عريضاً ورأسه غير أصلع تماماً . أما وجهه فكان أبيض ، ولكن خداه احمران .

وقد علمت فيما بعد أن هذه الألوان ، التي يشتهر بهـا اولئك الذين يملكون السلطـة ، معروفـة باسم « مسحة الكرملين » في الدوائر السوفياتية العليـا . وكانت اسنانه سوداء غير منتظمـة ، منحرفة الى الداخل ، وشارباه غير كثيفين أو ثابتين . ولم يكن رأسه قبيحاً ، بل كان فيـه شيء ما من الريف ومن طبيعة الفلاحين .

وقد فوجئت ايضاً بلهجته التي يستطيع المرء أن يدرك انهـا ليست روسية ، ومع ذلك فقد كانت مفرداته الروسية غنية وحية ومرنة ومليئة بالأمثال والأقوال الروسية . وكما علمت فيما بعد ، كان ستالين كان مطلعاً على الأدب الروسي ـ الأدب الروسي فقط . إلا ان مجـال معرفته الوحيد كان ـ خارج المجال الروسي ـ التاريخ السياسي .

على ان شيئاً واحد لم افاجأ به : كان ستالين يتمتع بروح النكتة ، النكتة الجارحة . وكان واثقاً بنفسه ، مع بعض الرقة والعمق . كانت ردود الفعل عنده واقعية وشاملة وسريعة ، وهذا لا يعني انه لم يكن يصغي للمتكلم ، إلا انه كان من الواضح ان الشرح الطويل لم يكن مناسباً لمزاجه . كانت علاقته مع مولوتوف على احسن وجه . فقد اعتبره مقرباً اليه وصديقـاً حميماً ، كما علمت فيما بعد . وكان مولوتوف العضو الوحيد في المكتب السياسي الذي يخاطبه ستالين بالضمير « تي » وهو دلالة على الاعتبار الخاص .

بدأت المحادثة بسؤال وجهه ستالين الينا حول انطباعاتنا عن الاتحاد السوفياتي ، فاجبت : « نحن متحمسون ! » وقد اضاف ستالين الى ذلك قوله : « ولكننا نحن لسنا متحمسين ، مع اننا نقوم بكل ما في وسعنا لنجعل الأمور أحسن في روسيا » . انني أحمل في ذاكرتي دائماً ان ستالين استعمل كلمة « روسيا » لا الاتحاد السوفياتي . وهذا معناه انه لم يكن موحيـاً للقومية الروسية فقط ، بل كان هو ايضاً يستوحيها ويمتن روابطه بها .

الا انه لم يكن لدي الوقت الكافي في ذلك الحين لافكر في مثل هذه الامور ، لأن ستالين انتقل الى الحديث عن العلاقات مع الحكومة اليوغوسلافية في المنفى ، فالتفت الى مولوتوف وقال متسائلاً : « الا نستطيع أن نحتال على الانكليز لحملهم على الاعتراف بتيتو ؟ انه الوحيد الذي يحارب الألمان . »

وابتسم مولوتوف ابتسامة تحمل الكثير من الصلابة والطمأنينة : « لا ، ان هذا مستحيل . فهم مطلعون تماماً على التطورات في يوغوسلافيا . »

وكم تحمست لهذه الطريقة المباشرة الصريحة التي لم اصادف مثلها حتى ذلك الحين في الدوائر السوفياتية الرسمية ، وخاصة في الدعايات السوفياتية . وهكذا شعرت انني في المكان المناسب ، مع رجل يعالج الحقائق بطريقة أليفة صريحة . وليس من الضروري القول بأن ستالين كان يتصرف هكذا مع رجاله فقط ، اي مع المؤيدين له ، الذين كرسوا حياتهم لخدمته .

وبالرغم من ان ستالين لم يعد بالاعتراف باللجنة الوطنية كحكومة موقتة ، فقد كان من الواضح انه كان مهتماً بتثبيت وجودها . اي ان الحكومة السوفياتية ستعترف باللجنة على الفور اذا اعتبرت ان الظروف أصبحت مواتية وان التطورات لم تأخذ مجرى آخر يؤدي الى تسوية بين بريطانيا والاتحاد السوفياتي ، وبالتالي بين اللجنة الوطنية والحكومة اليوغوسلافية الملكية .

وهكذا بقيت المشكلة دون حل ، بانتظار تصميم هذا الحل وايجاده . وقد ساهم ستالين في ذلك عندما عالج ، بموضوعية ، مد يد المساعدة الى القوى اليوغوسلافية الثائرة .

وعندما تحدثت عن قرض المائتي ألف دولار ، اجاب ان هذا مبلغ

تافه ، اذ ماذا نستطيع ان نفعل بهذا المال القليــل ؟ على انه قرر منحه لنا على الفور . وقد استاء ستالين ، بصورة مخلصة ، عندما اشرت الى اننا سنسدد قيمــة هــذا القرض ، وكذلك قيمـــة جميع شحنات الأسلحة والمعدات الاخرى . فقد قـــال : « انك تهينني . انكم تسفكون دماءكم ، وأنت تنتظر مني ان اطلب منكم دفع قيمة السلاح ! إنني لست تاجراً ، نحن لسنا تجاراً . انكم تحاربون مثلنا لبلوغ هدف واحد . ان الواجب يرغمنا على ان نشارككم في كل ما لدينا . »

ولكن كيف تأتي المساعدة ؟

لقد تقرر أن يطلب الى الحلفاء الغربيين اقامة قاعدة جوية في ايطاليا لمساعدة الفلاحين اليوغوسلاف . وقال ستالين «لنحاول» ، وأضاف : « سوف نرى اي موقف سيتخذه الغرب والى اي مدى سيذهب لمساعدة تيتو » .

وينبغي أن انوه هنا بان هــذه القاعدة ـ المكونـة من عشر طائرات للنقل ، حسب ما اذكر ـ قد اقيمت بعد ذلك بقليل .

وأوضح ستالين قائلاً : « ولكننا لا نستطيع مساعدتكم كثيراً بالطائرات . لا يمكنني تزويد الجيش بطائرة ، وانتم الآن جيش . انتم بحاجــة الى السفن ، ونحن لا نملك السفن ، فقد تحطم اسطولنا في البحر الأسود . »

وتدخل الجنرال زوكوف فقال : « لدينـــا بواخر في الشرق الأقصى يمكننا تحويلها الى خليج البحر الاسود وتعبئتهـا بالأسلحة وكل مـــا انتم بحاجة اليه » . فقاطعه ستالين بقساوة ، مفسحاً المجال لظهور جانب جديد من شخصيته ، وقال : « بماذا تفكر أنت ؟ هل أنت واعٍ تماماً لما تقول ؟ هناك حرب مستعرة في الشرق الأقصى . وهناك من لـــن تفوته فرصة اغراق هذه السفن . في الحقيقة يجب ان نشتري هذه السفن . ولكن ممن ؟ هناك

طلب كثير على السفن ، هـذه الايام ، من تركيا ؟ ولكن ليس لدى الاتراك سفن كثيرة . وعلى اية حال فلن يبيعونا شيئاً . مصر ؟ نعم ، بإمكاننا ان نشتري بعض السفن من مصر . مصر تبيع ، تبيع ، تبيع اي شيء ، اذن بامكانها ان تبيعنا السفن . »

نعم . هذا هو ستالين الحقيقي الذي لم يكن ينمق الكـلام . إلا انني كنت معتاداً على ذلك في الحزب . وقد استطعت تبرير هذه الطريقة حين كان يحين الوقت لاتخاذ قرار نهائي .

وسارع الجنرال زوكوف بصمت الى تسجيـل قرار ستالين . إلا ان شراء السفن وتموين اليوغوسلاف بواسطة السفن السوفياتية لم يحدث ابداً . وقد كان السبب الرئيسي لذلك ، دون شك ، تطور العمليات في الجبهة الشرقية . فقد بلغ الجيش الاحمر الحدود اليوغوسلافية بسرعة واصبح بامكانه مساعدة يوغوسلافيا مباشرة . وقد حصل ذلك عنـدما صمم ستالين نهائياً على مساعدتنا .

هذه خلاصة المحادثة .

وخلال المحادثة ، ابدى ستالين اهتماماً برأيي في السياسيين اليوغوسلاف . فسألني رأيي في ميلان غافريلوفيتش زعيم الحزب الفلاحي الصربي والسفير اليوغوسلافي الاول في موسكو ، فاجبته « انه رجل ذكي » .

وقال ستالين معلقاً : « نعم ، هناك سياسيون يظنون أن الذكاء هو أهم شيء في السياسة . إلا ان غافريلوفيتش ترك في نفسي انطبـاعاً بأنه رجل غبي . »

واضفت : « انه ليس سياسياً واسع الآفاق ، مع انني لا اعتقد انه يمكن القول انه رجل غبي . »

واستوضح ستالين اين وجد الملك بطرس الثاني زوجته . وقد اجاب

بخبث ، عندما اعلمته بانه اخذ امرأة يونانية ، قائلاً : « كيف يكون حالنا ، يا فياشاسلاف ميخالوفيتش ؟ لو تزوجنا ، انت وانا ، أميرة اجنبية ؟ ربما يحصل بعض الخير من وراء ذلك . »

وضحك مولوتوف بتحفظ ودون ضجيج .

وفي النهاية قدمت الهدايا لستالين . فبدت بدائية وعادية في ذلك الوقت . إلا انه لم يظهر اي خيبة امل . وعندما رأى صنادل الفلاحين قال متعجباً : « لابتي » ، وهي كلمة روسية معناها « هم » . اما البندقية فقد فتحها واقفلها قائلاً : « بنادقنا اكثر لمعاناً . »

وقد استمر الاجتماع حوالي الساعة .

ثم غادرنا الكرملين عند الفجر . وقد لاحظ الضابط المرافق مدى تحمسنا . فنظر الينا بفرح وحاول التحبب الينا بكل كلمة قالها . كانت الاضواء الشمالية تصل الى موسكو في ذلك الوقت من السنة ، وكل شيء كان مضيئاً ، خيالياً ، في عالم من التصور اجمل من ذلك العالم الذي كنا نعيش فيه .

هذا كان شعوري ، على اية حال ، في صميم نفسي .

ـ ٦ ـ

إلا انه كان امامي اجتماع آخر ، اكثر اهمية ، مع ستالين . واذكر جيداً متى حدث ذلك : عند نزول الحلفاء في نورماندي .

لم يخبرني أحد ، هذه المرة ايضاً ، بهذا الاجتماع سلفاً . بل اكتفوا باعلامي انه ينبغي ان اذهب الى الكرملين . وحوالي الساعة التاسعة في المساء

وضعت في سيارة قادتني الى هناك . لم يعلم احد اين كنت ذاهباً ، حتى اعضاء البعثة .

لقد اخذوني الى البناية حيث استقبلنا ستالين من قبل ، ولكن الى غرف اخرى هذه المرة . كان هناك مولوتوف ، يتهيأ للخروج . وعندما اخذ يلبس معطفه ويضع قبعته على رأسه ، اعلمني اننا سنتناول طعام العشاء عند ستالين .

لا يمكن القول ان مولوتوف كثير الكلام . وقد سألني في السيارة عن اللغات التي اتكلمها الى جانب الروسية فاجبته انني اتكلم الفرنسية . ثم تطرق الحديث الى قوة وتنظيم الحزب الشيوعي في يوغوسلافيا . وقد شددت على ان الحرب نشبت والحزب الشيوعي غير مرخص به والشيوعيون قلائل في العدد — حوالي عشرة الاف شخص — ولكنهم كانوا يتميزون بالنظام . وقلت انهم كانوا « مثل حزب البولشفيك في الحرب العالمية الاولى . » فاجاب مولوتوف معلقاً : « انت مخطىء ! لقد نشبت الحرب العالمية الاولى وحزبنا في حالة ضعيفة جداً . كان مبعثر القوى ، ذا عدد قليل من الاعضاء . » واضاف مولوتوف قائلا : « كيف جئت في بداية الحرب ، بصورة غير شرعية ، من بتروغراد الى موسكو لاعمال تتعلق بالحزب ؟ لم يكن هناك مكان اقضي فيه ليلتي ، ولم يكن امامي سوى ان اجلس الى جانب شقيقة لينين . » وقد ذكر مولوتوف اسم هذه الشقيقة ايضاً ، وكان ، على ما اذكر ، ماريا ايللينيشنا .

كانت السيارة تسير بنا بسرعة ستين ميلاً في الساعة ، ولم تصادف في طريقها اية موانع ، ولعل بوليس السير كان يعرف السيارة بطريقة ما ويفسح لها مجال المرور .

كانت الطريق خارج موسكو من الاسفلت . وكانت تسمى ، كما

عرفت فيما بعد ، طريق الحكومة ، لانه لم يكن مسموحاً لغير سيارات الحكومة ، بعــد الحرب بزمن طويل ، ان تمر في تلك الطريق . هل ما يزال ذلك ساري المفعول حتى الآن ؟ وبعد لحظة بلغنا احد الحواجز . واذ اعطى الضابط الذي كان جالساً قرب السائق اشارة صغيرة ، سمح الحارس لنا ان نتابع السير دون اجراء أيــة معاملات . وكان زجاج النافذة الشمالية مفتوحاً . ولاحظ مولوتوف انني لست مرتاحاً من تيار الهواء الدي تسرب منه ، فسارع الى تنزيل الزجاج . وهنـا لاحظت ان الزجـاج كان سميكاً جداً ، فتحققت من اننا في سيارة منيعة اعتقد انها كانت من نوع « باكارد » ، لان تيتو حصل على سيارة من النوع نفسه عام ١٩٤٥ ، من الحكومة السوفياتية .

كان قد سبق عشاءنا بايام ، هجوم مفاجيء شنه الالمان على القيادة العليــا لجيش التحرير الشعبي اليوغوسلافي في « درفا » . وكان على تيتو والبعثات العسكرية ان يهربوا الى التلال ، وان يضيعوا وقتاً ثميناً في السير ، كان من الممكن ان يستعمل للقيام بنشاط سياسي وعسكري . ونشأت مشكلة الطعام . وكانت البعثة العسكرية السوفياتية في ذلك الوقت تخبر موسكو تفصيلياً عن كل ذلك ، بينما كانت بعثتنا في موسكو على اتصال دائم بالضباط المسؤولين السوفيات ، فتسدي لهم النصح عن كيفية تقديم المساعدة للقوات اليوغوسلافية والقيادة العليا . وقد حلقت الطائرات السوفياتية ، حتى في الليل ، والقت بالاغذية من الجو . على ان ذلك لم يصادف نجاحاً كبيراً ، لان الحمولات تبعثرت فوق غابـة واسعة كان من الضروري اخلاؤها بسرعة .

وفي الطريق ، تمنى مولوتوف سماع رأيي في الحالة الناجمة عن ذلك .

كان اهتمامه بهذا الأمر قوياً ، ولكن دون حماس ـ كان مجرد رغبة في اخذ صورة حقيقية عن الوضع .

واندفعت بنا السيارة حوالي ثمانين ميلاً ، ثم اتجهت يساراً نحو طريق جانبية ادت بنا الى اشجار صغيرة من الشربين .

وبعد حين دخلنا قاعة صغيرة قرب المدخل حيث ظهر ستالين . كان هذه المرة بحذائه العادي ، وهندامه البسيط ، وقميصه المزرر حتى ذقنه ، كما كان يبدو في صوره قبل الحرب . وهكذا بدا أصغر سناً واكثر بساطة ، شاعراً انه في بيته . وقد قادنا الى غرفة دراسة فارغة تثير الدهشة : لا كتب ولا صور ، بل مجرد حيطان خشبية عارية . واذ جلسنا حول لوح للكتابة ، بدأ يستوضح عن امور تتعلق بالقيادة العليا اليوغوسلافية .

كانت طريقة ستالين في الاستفهام توضح الفارق الحاد بينه وبين مولوتوف ، الذي كانت افكاره والكيفية التي تتولد فيها ، غير ممكن النفاذ اليها . أما ستالين فكان ذا مزاج حيوي ، دائم القلق والاضطراب . وكان دائماً يسأل نفسه والآخرين ـ ويناقش نفسه والآخرين . ولا أقول ان مولوتوف لم يتهيج بسهولة ، او ان ستالين لم يعرف كيف يضبط نفسه ويتجنب الاهتياج . فقد رأيتهما فيما بعد في هذه الادوار . غير ان مولوتوف كان دائماً هو نفسه ، دون ان يظهر عليه اي تغيّر ، بغض النظر عن الشخص الآخر او الموضوع الذي يبحث فيه ، بينما كان ستالين غيره تماماً حين يكون مع جماعته والمقربين اليه . وقد وصف تشرشل مولوتوف بانه آلة حديثة طيعة ، وهذا صحيح . لكن ذلك ليس اكثر من جانب واحد من جوانبه الخارجية . ولم يكن ستالين مختلفاً عنه كثيراً ، إلا في كونه اكثر عاطفية ، وذا جوانب كثيرة في طبيعته ، بالرغم من ان هذه الجوانب كانت متساوية .

لقـــد ساد الانطباع ان مولوتوف كان ينظر الى كل شيء ـ حتى الى الشيوعية وأهدافها البعيدة ـ على انه نسبي ، وانـه شيء يتحتم عليه ، لا يجب عليه ، ان يخضع له مصيره . فكأنما ليس هنالك مـــا هو باقٍ ودائم بالنسبة له ، وكأنما هو ليس إلا حقيقة موقتة وغير مثالية تظهر نفسها بطرق مختلفة كل يوم ، وعليه ان يهب لهذه الحقيقة نفسه وحياته . وكان كل شي زائلاً ايضـاً بالنسبة لستالين . تلك هي وجهـة نظره الفلسفية. وخلف هذا الزوال وداخله ، كانت تختبيء بعض الافكار العظيمة والمثالية ـ افكاره هو التي استطاع ان يكوّنها بمزج الحقيقة مع حياة الذين يجسدونها .

وبالرجوع الى الماضي ، يظهر لي ان هذين الرجلين ، مولوتوف بايمانه بالنسبية وميله الى تفاصيل الحوادث اليوميـــة ؛ وستالين ، بمذهبه العقائدي التعصبي ، وفي الوقت نفسه ، افاقه الواسعة ، واندفاعه في طلب الاستزادة من معرفة امكانيات المستقبل ، قد اكمل ، واحدهمـــا الآخر . وكان مولوتوف ، بالرغم من ضعفه بدون قيادة ستالين ، لا غنى لستالين عنه في اشياء عديدة . ومع ان كليهما كانا متزمتين في وسائلهما ، فقد اختـــار ستالين ، كما بدا لي ، وسائله عن قصد وجعلها منسجمة مع الاحداث ، بينما اعتبرها مولوتوف عرضية وغير مهمة . وهو لم يكن يحرّض ستالين على القيام بأعمال عديـدة فحسب ، بل كان ايضـــاً يساعده ويبـــدد شكوكه . وبالرغم من دعوى ستالين بأنه لعب الدور الرئيسي في تحويل روسيا المتخلفة الى قوة امبراطورية صناعية حديثـــة ، فإنه لمن الخطأ عدم تقدير دور مولوتوف ، وخصوصاً دوره التنفيذي في العمل .

وقد ظهر من الناحية الفيزيائية أن دور مولوتوف كان يلائمه .. فهو دقيق ، ورزين، وهادىء ، وواثق بنفسه. كان يشرب أكثر من ستالين، ولكن انخابه كانت أقصر، وغاياتها كانت خلق نوع من التأثير السياسي . اما حياته الخاصة فكانت

غير لامعة . وحين اجتمعت بزوجته ، بعد ذلك بسنة ، وهي أمرأة متواضعة ، مهيبة ، خيل اليّ ان اية امرأة اخرى كان في وسعها ان تفي بحاجته العادية الضرورية .

بدأت المحادثة مع ستالين بإستيضاحاته المتحمسة عن حال القيادة العليا اليوغوسلافية والوحدات التابعة لها . وهتف قائلاً : « سوف يموتون من الجوع » .

وحاولت أن أبين له أن هذا لن يحدث .

ولكنه تابع قائلا : « ولم لا ؟ كم من المرات غلب الجنودَ الجوع ؟ الجوع ألد اعداء الجيوش جميعاً . »

وشرحت له قائلا : « ان تلك البقعة من الأرض تحتوي دائماً على ما يؤكل . لقد كنا في حالات أسوأ ، وما زلنا ، ولم يقهرنا الجوع » . وهكذا نجحت في تهدئته وادخال الطمأنينة الى نفسه .

ثم عاد ستالين إلى بحث إمكانية إرسال مساعدة . كانت الجبهة السوفياتية ما زالت عاجزة ، لسببٍ من بعدها ، عن تقديم طائرات مقاتلة لحراسة المواصلات . وفي مرحلة ما من الحديث ، استشاط ستالين غيظاً وصاح منددأ بالطيارين وواصفاً اياهم بالجبن ، وقال : « انهم جبناء — يخافون الطيران في النهار ! جبناء ، والله ، جبناء ! »

أما مولوتوف ، الذي كان مطلعاً على المشكلة تماماً ، فقد دافع عن الطيارين قائلا : « كلا ، ليسوا جبناء . انهم براء من هذه التهمة . وكل ما في الأمر ان الطائرات المقاتلة ليست بعيدة المرمى ، وطائرات النقل تُضرب قبل الوصول الى هدفها . اضف الى ذلك ان عنابرها ضيقة ، وعليها ان تحمل وقودها لكي تستطيع العودة . هذا هو السبب الوحيد الذي يجعلهم يطيرون ليلاً ويقللوا من حمولة طائراتهم .

وفي هذا أيدت مولوتوف ، لاني كنت أعلم أن الطيارين السوفيات قد

تطوعوا للطيران نهاراً ، دون حماية من الطيارات المقاتلة ، وذلك لكي يساعدوا زملاءهم الجنود في يوغوسلافيا .

وفي الوقت نفسه ، كنت على اتفاق تام مع ستالين على إلحاحه بأن تيتو ، بالنظر الى الأحداث والتجارب الجديدة والمعقدة ، يحتاج الى مركز قيادة للجيش أكثر استقراراً ، والى تحرير نفسه من الأخطار اليومية . وليس هناك أدنى شك في ان ستالين قد نقل وجهة النظر هذه الى البعثة السوفياتية . فقد كان ، بناء على الحاح هذه البعثة ، ان وافق تيتو على الجلاء عن إيطاليا ، ومن هناك إلى جزيرة فيس ، حيث ظل إلى ان دخل الجيش الأحمر يوغوسلافيا . وبالطبع ، لم يقل ستالين شيئاً عن هذا الجلاء ، ولكن الفكرة كانت قد بدأت تتكون في ذهنه .

وكان الحلفاء قد استحسنوا ، من قبل ، إنشاء قاعدة جوية سوفياتية في ايطاليا لمساعدة الجنود اليوغسلاف . وقد اصر ستالين على إرسال طائرات النقل بسرعة للعمل في القاعدة ذاتها .

واذ شجعه تفاؤلي ، على ما يبدو ، بصدد النتيجة النهائية التي سيسفر عنها الهجوم الألماني ضد تيتو ، فقد انتقل في الحديث الى علاقاتنا مع الحلفاء وبخاصة مع بريطانيا العظمى . وإذاك اتضح لي السبب الرئيسي للإجتماع بي .

كان جوهر اقتراحاته ، من جهة ، اننا يجب أن لا « نخيف » الانكليز . وقد عنى بذلك ، ضمناً ، انه ينبغي لنا ان نتجنب كل ما من شأنه ان يدفعهم الى التفكير بأن هناك ثورة ناشبة في يوغوسلافية أو ان هناك محاولة للسيطرة الشيوعية .

وهنا صاح ستالين مغتاظاً : « ماذا تفعلون بهذه النجوم التي فوق قبعاتكم ؟ هذه الأشكال لا تهم . المهم هو النتيجة وأنتم ــ بنجوم حمراء ! والله .. النجوم ليست ضرورية » .

إلا انه لم يخفِ الحقيقة ، وهي ان غضبه لم يكن شديداً ، بل كان تعبيراً عن اللوم والاستياء . فشرحت له موقفي قائلا : « من المستحيل إلغاء النجوم الحمراء لأنها تقليد متبع اكتسب معنى ما بين محاربينا . »

ولزم ستالين موقفه ، ولكن دون اصرار شديد . ثم انتقل الى موضوع العلاقات مع الحلفــاء الغربيين من وجهة نظر اخرى ، وتابع قائلاً :

« ربما تظنون اننا ، لكوننا حلفاء الانكليز ، قد نسينا من هم ومن هو تشرشل . انهم لا يجدون ما هو أحب اليهم من خداع حلفائهم . وقد خدعوا الروس والفرنسيين دائماً خلال الحرب العالمية الأولى . وتشرشل ؟ تشرشل هو من النوع الذي ، اذا لم تراقبــه ، سرق القرش من جيبك . نعم ، قرش واحـد من جيبك ! بالله .. نعم قرش واحــد من جيبـك . وروزفلت ؟ روزفلت ليس هكذا . انه يمدّ يده فقط الى القطع الكبيرة من النقود ، اما تشرشل ـ فانه يمد يده حتى لنشل قرش واحد . »

ثم شدد ستالين مرات عديدة على انه ينبغي لنـا ان نكون على حذر من المخابرات السرية ومن الدجل الانكليزي ، خاصة فيما يتعلق بحيــاة تيتو . « انهم هم الذين قتلوا الجنرال سيكورسكي في طائرة ، ثم اطلقوا النيران على الطائرة ـ لا شاهد ولا دليل . »

وقد حرص ستالين خلال الاجتماع على تكرار هـذه التنبيهات ، التي نقلتها بدوري الى تيتو لدى عودتي . ولعل ذلك قد لعب دوراً كبيراً في عزمه على الطيران من فيس الى المناطق السوفياتية المحتلة في رومانيا ، وذلك في شهر ايلول ١٩٤٤ .

ثم انتقــل ستالين الى الحديث عن العلاقات مع الحكومة الملكيــة اليوغوسلافية . كان المندوب المفوض الجديد لهذه الحكومة هو ايفان شوباشيتش الذي وعد بتسوية العلاقات مع تيتو وبالاعتراف بجيش التحرير الشعبي على

انه القوة الرئيسية في الصراع ضد قوات الاحتلال . وقال ستالين بالحاح : « لا ترفضوا اجراء محادثات مع شوباشيتش ــ مهما كانت الظروف . لا تهاجموه بسرعة ، لنرى ماذا يريد . تحدثوا اليه . لا يمكن الاعتراف بكم على الفور . يجب اجتياز مرحلة مـــا قبل ذلك . وعليكم ان تتحدثوا الى شوباشيتش وتروا اذا كان بالامكان التوصل الى التسويـــة بشكل من الاشكال » .

لم يكن إلحاح ستالين هذا قاطعاً ، ولكنه بدا على شيء من العزم . وقد نقلت ذلك الى تيتو إلى اعضاء اللجنة المركزية . ولعل ذلك ايضاً قد لعب دوره في اتفاق تيتو ــ شوباشيتش المعروف .

ثم دعانا ستالين الى العشاء ، ولكننا وقفنا في ممشى القاعة أمام خارطة للعالم ظهر عليها الاتحاد السوفياتي بلون احمر ، فبدا اكبر وأوسع مما يبدو عادة . ولوح ستالين بيده فوق الاتحاد السوفياتي ، وأشار الى ما كان يقوله منذ لحظات ضد الانكليز والأميركيين ، ثم قال : « انهم لن يقبلوا بان تكون هذه المساحة الكبيرة حمراء ، لن يقبلوا ابداً ، ابداً . »

ولاحظت انه كان هنالك دائرة بالحبر الازرق تحيط بستالينغراد من جهـــة الغرب . وكان من الواضح ان ستالين قد وضعها خلال معركة ستاليغراد . وحين لاحظ انني كنت احدق فيها ، داخله السرور والرضى .

لا أذكر الآن السبب ، إلا انني سمعت شيئاً كهذا : « بدون التصنيع ، كان يتعذر على الاتحـاد السوفياتي حماية نفسه وشن حرب كهـــذه . » واضاف ستالين : « حول هـــذه النقطة بالذات ، كان شجارنا مـــع تروتسكي وبوخارين . »

وهذا كل مـــا سمعت منه ــ هنا بالقرب من الخارطة ــ عن هؤلاء الخصوم . اذن لقد تشاجروا !

وفي غرفة الطعام ، كان هنالك اثنان أو ثلاثة من كبار رجال الحكومة السوفياتية ينتظرون ، وهم وقوف . ولم يكن بينهم احد من اعضاء المكتب السياسي ما عدا مولوتوف . لقد نسيت من هم . وعلى كل حال ، فقد كانوا صامتين وهادئين طيلة الحفلة .

لقد وصف تشرشل في مذكراته عشاء مرتجلاً مع ستالين في الكرملين . ولكن العشاء مع ستالين كان دائماً هكذا ، على وجه العموم .

كانت غرفة الطعام واسعة وغير مزخرفة . وكان هنالك طاولة احتشدت فوق نصفها الامامي جميع ألوان الطعام في اطباق فضية ساخنة ، بالاضافة الى انواع الشراب وصحون ملأى بالمقبلات . وقد قام كل منا بخدمة نفسه ثم جلس وراء النصف الفارغ من الطاولة . ولم يكن ستالين يجلس في صدر الطاولة ، بل كان يجلس دائماً في الكرسي الاول على يسار صدر الطاولة .

وكانت اصناف الطعام والشراب عديدة التنوع ، بينها اللحوم والمشروبات والسوائل . اما ما عدا ذلك ، فقد بدا كل شيء بسيطاً وعادياً . ولم يطل علينا أيٌ من الخدم إلا عندما رن ستالين الجرس ، وهو لم يرن الجرس إلا عندما طلبت قدحاً من البيرة . وقد تناول كل منا ما شاء من الطعام وبقدر ما شاء . وكان هناك الحاح وتشجيع على الشراب فضلاً عن الانخاب الكثيرة التي كان علينا ان نرفع الكؤوس لها .

كان مثل هذا العشاء يستمر عادة ست ساعات واكثر — من العاشرة ليلاً حتى الرابعة او الخامسة في الصباح ، بحيث كان المرء يأكل ببطء وخلال محادثة متعددة الموضوعات ، تمتد من القصص والاخبار الى النظريات السياسية والفلسفية . وكان يتم ، بطريقة غير رسمية ، تقرير قسط كبير من السياسة السوفياتية في جلسات كهذه . وقد كانت اكثر جلسات ستالين مرحاً وطمأنينة ، وكان ما عداها ، في حياته ، مملاً ورتيباً .

وقد اعتاد مساعدو ستالين على هذه الطريقة في الحيـاة والعمل : فكانوا يقضون الليالي في العشاء مع ستالين او مع اشخاص يوازونهم في المنزلة . وكانوا لا يصلون الى مكاتبهم قبل الظهر ، فيقضون فيها عادة حتى وقت متأخر من الليل . وهذا مـا أوجد الكثير من التعقيدات والصعوبات في تسيير شؤون الادارة العليا ، إلا ان هذه الادارة تعودت على ذلك ، بما فيها الهيئات الدبلوماسية .

ولم يكن هناك نظام خاص لاعضاء المكتب السياسي او كبار الرسميين ، لحضور جلسات العشاء . وقد جرت العادة ان يحضر اولئك الذين لهم علاقة بمهمة الضيف او بالقضايا الراهنـة . وهكذا كانت الحلقـة ضيقة ، وكانت الدعوة الى هذه الجلسات شرفاً خاصاً . وكان مولوتوف وحده يحضر هذه الجلسات بصورة دائمة . واعتقد ان هذا ليس عائداً فقط الى وظيفته ككوميسار ، أو كوزير للشؤون الخارجية ، وانما لانه كان بالاضافة الى ذلك نائب ستالين .

كان الزعمـاء السوفيات ، في هـذه الجلسات الخاصة ، على افضل ما يكون تقارباً وانسجاماً ، فيسرد كل منهم ما عنده من اخبار ويشرح المشاريع التي نفذها . وكانت كمية الكحول اللامتناهية تزيد في حيوية الجو وتضفي عليه روح المحبة وانعدام الشكليات ، لدرجة ان الغريب الذي لا يعرف ، لا يستطيع ان يميز ستالين عن الآخرين . ومع ذلك ، فقد كان هذا التمييز موجوداً . إذ لم يكن هناك من يعارضه بشدة .

وكان ستالين يتناول ، عادة ، كميات كبيرة من الطعام تكفي شخصاً اكبر منه حجماً . وغالباً ما كان يتناول اللحم ، وهذا ما يعكس طبيعته الجبلية . وكان يحب جميع انواع الاطعمة الخاصة التي تعطيها تلك الارض المتنوعة

المنـــاخات والحضارات . الا انني لم ألاحظ ان ستالين كان يؤثر نوعاً خاصاً من الطعام .

وكان ستالين يشرب باعتـــدال ، فيمزج النبيذ الاحمر بالفودكا ، على الغالب ، في اكواب صغيرة . ولم الاحظ مرة اية دلالة على وجهه تشير الى السكر . في حين انني لا استطيع ان اقول الشيء نفسه عن مولوتوف ، او عن بيريا الذي كان ، بنوع خاص ، سكيراً محترفاً .

واذ كان الزعماء السوفيات يأكلون حتى التخمة في مثل هذه المآدب ، فقد تناولوا قليلاً من الطعام ، وبصورة متقطعة ، خلال النهـار . وكان اغلبهم يتبع نظاماً خاصاً يقتصر على العصير الفاكهة ، خلال يوم واحد في الاسبوع ، وذلك لتخفيف الوزن .

وكانت تتقرر في هذه الجلسات مصائر البـلاد السوفياتية والبلدان التي حصلت عليها مؤخراً ، ومصير الجنس البشري الى حد بعيد .

ولم اكن حتى تلك اللحظات قد سمعت شيئاً عن المعارضة الداخلية في الحزب وعن كيفيـــة معالجتها . ولعـــل ذلك كان من شأن ستالين والبوليس السري . وبما ان الزعماء السوفيات هم كائنات بشرية ، فانهم ينسون كل ما له علاقة بالضمير ، لان اي نداء ضميري يكوّن خطراً على مصيرهم .

وسوف اذكر كل ما بدا لي ذا اهمية في الاحاديث المتقطعة المتنوعـة خلال تلك الجلسة .

لقد اعدت الى الذاكرة الروابط القديمة بين سلافيي الجنوب وروسيا ، عندما قلت : « ولكن القياصرة الروس لم يدركوا آمال سلافيي الجنوب ، بل كانوا مهتمين بالتوسع الاستعماري ، في حين كنا مهتمين بالتحرر » .

وقد وافق ستالين على ذلك ، انما بطريقة مختلفة ، فقال : « نعم ، كان ينقص القياصرة الروس سعة الأفق » .

كان اهتمام ستالين بيوغوسلافيا مختلفاً عن اهتمام باقي الزعماء السوفيات . فهو لم يكن مهتماً بالتضحيات والدماء والتخريب ، وانما بالعلاقات الداخلية التي نشأت وبالقوة الفعلية لحركة الثوار . وهو لم يجمع اية معلومات بطريقة الاستجواب ، بل ترك لنفسه ادراك الامور من سياق المحادثة .

وابدى ستالين ، في مرحلة من الحديث ، اهتماماً بالبانيا ، فقال : « ماذا يحصل هناك ؟ اي نوع من الناس هم ؟ »

وشرحت له ان ما كان يحدث في البانيا ، كان يحدث مثله في يوغوسلافيا . وقلت ان الالبان هم اقدم شعوب البلقان ـ اقدم من السلافيين ، بل اقدم من اليونان القدماء » .

وسأل ستالين : « ولكن كيف اكتسب بعضهم الاسماء السلافية ؟ أليس لهم اي نوع من الروابط مع السلافيين » .

وشرحت هذه النقطة ايضاً ، فقلت : « لقد سكن السلافيون الوديان في العصور القديمة ، وفي ايام الاتراك طردهم الالبان » .

وغمز ستالين بعينه ثم قال : « كنت آمل على الاقل ان يكون في الالبانيين بعض السلافية ؟ »

وخلال حديثي له عن اسلوب الحرب في يوغوسلافيا ، اشرت الى اننا لم نأخذ أسرى المان ، لانهم قتلوا جميع الأسرى اليوغوسلاف .

وقاطعني ستالين ضاحكاً : « كان احد رجالنا يقود فريقاً من الأسرى الالمان ، وخلال الطريق قتل الجميع إلا واحداً . وعندما وصل الى مقره سألوه : واين الآخرون ؟ فاجاب : لقد نفذت اوامر القائد العام .

فقد قال لنا : اقتلوا الجميع حتى الرجل الاخير . وهذا هو الرجل الاخير ! »

واعطى ستالين بعض الملاحظات حول الالمان خلال الحديث : « انهم شعب غريب ، كالخرفان . اذكر منذ طفولتي : اينما يذهب الكبش يلحقه القطيع . واذكر ايضاً انني اثناء وجودي في المانيا قبل الثورة سمعت الحادثة التالية : جاء بعض الالمان الاشتراكيين الديمقراطيين الى الكونغرس متأخرين ، لانه كان عليهم ان يؤشروا على بطاقات عضويتهم . متى فعل الروس شيئاً كهذا في حياتهم ؟ وقد قال احدهم : حسناً . في المانيا لا يمكن ان تقوم الثورة لانه في هذه الحال عليك ان تدوس فوق الاعشاب . »

وسألني ستالين عن معاني بعض الاشياء باللغة الصربية . والمعروف ان هنالك شبهاً عظيماً بين الروسية والصربية . وقال ستالين بدهشة : « بالله ... ليس من شك في ذلك : انهم شعب واحد . »

ثم سألني ستالين عن الزعماء الذين قابلتهم في موسكو ، وعندما ذكرت ديميتروف ومانويلسكي ، اجاب : « ديميتروف اكثر ذكاء من مانويلسكي ، بكثير » .

وهنا اشار ستالين الى حل الكومنترن فقال : « ان الغربيين دهاة لدرجة انهم لم يذكروا لنا شيئاً عن ذلك ، وكنا مصرين على انهم لو ذكروا لنا شيئاً عنه لما قمنا بحله ابداً ! كان الوضع مع الكومنترن قد ازداد سوءاً . كنا هنا مع فياشاسلاف ميخايلوفيتش نتعب رؤوسنا ، بينما كان كل شيء يسير الى اسوأ . انه لمن السهل ان تعمل مع ديمتروف إلا انه من الصعب جداً ان تعمل مع الآخرين . وكان هناك شيء آخر غير طبيعي — شيء غير عادي حول ضرورة وجود محكمة شيوعية عامة في وقت كانت فيه

الأحزاب الشيوعية تبحث عن لغة قومية وتناضل تحت الظروف الخاصة السائدة في بلادها » .

وفي تلك الليلة وصلت رسالتان ، فاعطانيهما ستالين لقراءتهما . كانت احداهما تنص على ما قاله شوباشيتش لوزارة خارجية الولايات المتحدة . كان موقفه كما يلي : نحن اليوغوسلاف لا يمكننا ان نكون ضد الاتحاد السوفياتي ، لا يمكننا ان نتبع سياسة معادية لروسيا ، لأن التقاليد الروسية والسلافية متينة جداً .»

وعلق ستالين على ذلك بقوله : « ها هو شوباشيتش يخيف الاميركيين . نعم ، يخيفهم ! ولكن لماذا ؟ لماذا ؟ »

وأضاف ، ملاحظاً الاستغراب على وجهي : « انهم يسرقون رسائلنا ونحن نسرق رسائلهم » .

وكانت الرسالة الثانية من تشرشل . وقد أعلن فيها ان نزول القوات في فرنسا سيبدأ في اليوم التالي . فبدأ ستالين يسخر من الرسالة قائلا : « نعم ، سيكون هناك نزول للقوات اذا لم يكن هناك ضباب ، وحتى الآن ما يزال هناك شيء ما يعترض هذا النزول . وقد تتغير الأمور غداً ... فلربما سيعترضهم بعض الألمان ! ربما لن تنزل القوات في هذه الحال ، ولا يبقى هناك غير الوعود ، كالعادة . »

وتدخل مولوتوف فقال : « لا . هذه المرة سيكون الامر جدياً ».

كان انطباعي ان ستالين لم يشك في امر نزول القوات الحليفة ، الا ان غايته كانت السخرية منهم ، وخاصة من تأجيلهم النزول عدة مرات . »

واني ، اذ اختصر اليوم ما جرى تلك الليلة ، يمكنني ان استنتج ان ستالين كان يخيف الزعماء اليوغوسلاف لكي يوهن روابطهم بالغرب، وكان، في الوقت

نفسه ، يريد ان يستفيد من سياستهم لمصالحه ولعلاقاته مع الدول الغربية ، وخاصة مع بريطانيا العظمى .

لقد كان ستالين ، بفضل الايديولوجية ووسائل تحقيقها ، والتجربة الشخصية والارث التاريخي ، يعتبر ان ما في قبضة يده هو الشيء الوحيد المضمون ، وان كل ما هو خارج سلطته عدو ممكن . الثورة اليوغوسلافية قد خرجت من تحت قبضته بسبب ظروف الحرب . وكان يعرف كل ذلك ، ويفعل ما في وسعه ليثير كراهية الزعماء اليوغوسلاف للدول الغربية ، محاولا ان يشد هؤلاء الزعماء اليه وان يستفيد من سياستهم .

إن العالم الذي عاش فيه الزعماء السوفيات – وهو عالمي ايضاً – كان قد بدأ يتخذ شكلاً جديداً بالنسبة لي : صراع دائم بين جميع الجهات ، صراع كان القوي وحده يعيش فيه ويستمر .

إنه عالم لا مجال فيه للاختيار الا بين الانتصار او الموت .

هذا كان ستالين – مؤسس النظام الاشتراكي الجديد .

وقبل ان اغادر المكان ، سألت ستالين اذا كان لديه اية ملاحظات حول نشاط الحزب اليوغوسلافي ، فاجاب : « لا . ليس لدي اي شيء من هذا القبيل . انكم تعرفون اكثر من سواكم ما يجب عمله . »

وعندما وصلت الى « فيس » شرحت هذا الأمر لتيتو وبقية الاعضاء في اللجنة المركزية . وقد وصفت باختصار زيارتي لموسكو فقلت : ان الكومنترن لم يعد موجوداً ، وعلينا نحن اليوغوسلاف ان نقف الى جانب أنفسنا . ينبغي لنا ان نعتمد على قوتنا اولاً .

واذ كنت اغادر المكان ، بعد ذلك العشاء ، قدم اليّ ستالين سيفاً كهدية لتيتو – هدية القائد الأعلى السوفياتي . وقد اضفت الى هذه

الهدية بدوري هدية اخرى ، في طريق عودتي عبر القاهرة ، وهي رقعة شطرنج من العاج .

وبزغ الفجر خلال غابة الشوح المحيطة بالفيللا التي كان يعيش فيها ستالين . وقد صافحني ستالين ومولوتوف امام الباب ، متعبين بعد ليل لم يعرفا فيه النوم . فحملتني السيارة بعيداً الى موسكو التي لم تكن قد استيقظت بعد ، والتي كانت تتحمم في الندى وفي سديم حزيران الازرق . وهناك عاودني الشعور الذي خالجني عندما لمست قدمـــاي ارض روسيا لأول مرة : ان العالم لا يبدو كبيراً اذا نظر اليه من هذه الارض ، وربما لا يبـــدو ايضاً صعب المنال ـ مع ستالين ومع الافكار التي كان يفترض انها كشفت للانسان عن الحقيقة ـ حقيقته وحقيقة المجتمع .

كان حلماً رائعاً ـ في واقع تلك الحرب . ولم يخطر في بالي ان اقرر ايهما كان اكثر واقعية ، كما لا استطيع ان اقرر الآن ، ايهما ، الحلم ام الحقيقة ، قد فشل في تحقيق وعوده .

ان البشر يعيشون في الاحلام وفي الحقائق .

شكوك

لم تكن رحلتي الثانية الى موسكو واجماعي للمرة الثانية بستالين لتتم ، لو أنني لم أكن ضحية صراحتي .

ففي اعقاب دخول الجيش الأحمر الى يوغوسلافيا وتحرير بلغراد في خريف ١٩٤٤ ، قام جنود الجيش الأحمر بتصرفات خطرة ازاء السكان وافراد الجيش اليوغوسلافي ، فنتج عن ذلك مشكلة جديدة واجهت نظام الحكم الجديد والحزب الشيوعي .

كان الشيوعيون اليوغوسلاف يؤلهون الجيش الأحمر ، وقد عمدوا هم انفسهم الى الضرب بيد من حديد على كل من يرتكب عملا ، مهما كان بسيطاً ، من اعمال السلب والجريمة . ولذلك شق عليهم ، اكثر من عامة الناس ، ان يروا هذه الاعمال التي يتوقع ان يرتكبها كل جيش ، يرتكبها الجيش الأحمر كذلك . والاسوأ من ذلك ، فقد استغل اعداء الشيوعية هذه الحوادث التي قام بها جنود الجيش الاحمر ، في نضالهم ضد نظام الحكم المتأرجح ، وضد الشيوعية بوجه عام . وقد زاد في تعقد المشكلة ، ان قيادات الجيش الاحمر لم تعر اذناً صاغية

للشكاوى . وهكذا انطبع في عقول الجميع ان هـذه القيادات كانت تنظر بعين الرضى الى المرتكبين وما يرتكبونه من اعمال شائنة .

كان من الواجب ، اذن ، بحث هذه المسألة ، فور عودة تيتو الى بلغراد قادماً من رومانيا . وكان تيتو قـد زار خلال رحلته موسكو واجتمع بستالين للمرة الاولى .

وفي اجتماع عقـد في منزل تيتو وحضرته بنفسي ، بالاضافـة الى كاردليج ورانكوفيتش ، تقرر بحث هـذه المسألة مع رئيس البعثة السوفياتية ، الجنرال كورنييف . ولكي نجعـل كورنييف يتفهم المسألة كلها ، بكل ما فيها من خطورة ، تقرر ان لا يقوم تيتو وحده بمحادثته ، بل ان نحضر نحن الثلاثة الاجتماع ، ومعنا ابرز القواد اليوغوسلافيين — الجنرال بيكو دابشيفيتش وكوكا بوبوفيتش .

وقد عرض تيتو القضية على كورنييف بطريقة مهذبة ومعتدلة جداً ، مما جعل رفض هذا الأخير وخشونته امراً مدهشاً . لقد خاطبنا كورنييف بصفته رفيقاً وشيوعياً ، ولكنه صرخ بنا قائلاً : « باسم الحكومـة السوفياتية ، احتج على مثل هـذا الغمز من قنـاة الجيش الاحمر ، الذي ... »

وقد ذهبت جميع الجهود التي بذلت لاقناعه بلا جدوى . فقـد ثار في داخله فجأة شعوره بانه ممثل لدولة عظيمة ولجيش « محرر » .

وقلت في هذا الاجتماع : « ان المشكلة تكمن في حقيقة اخرى ايضاً ، وهي ان اعداءنا يستغلون هـذا الامر ضدنا ، وهم يقارنون سلوك جنود الجيش الاحمر بسلوك الجنود الانكليز ، الذين لا يقحمون انفسهم في مثل هذه الاعمال . »

وكان ردّ فعل كورنييف على هـذا القول دليلاً على انه لم يتفهم

موقفنا مطلقاً . اذ قال : « انني احتج بشدة بالغة على اهانة الجيش الاحمر بمقارنته بجيوش الدول الرأسمالية ! »

ولم تحص السلطات اليوغوسلافية الاعمال المنافية للقانون التي قام بها جنود الجيش الاحمر ، الا بعد مضي وقت طويل . وبحسب الشكاوي التي تقدم بها السكان كان هناك ١٢١ حالة اغتصاب ، بينها ١١١ قضية اغتصاب وقتل ، و ١٢٠٤ قضية سلب . ولا شك في ان مغزى هذه الارقام يعمق ، اذا علمنا ان الجيش الاحمر لم يعبر إلا الزاوية الشمالية الشرقية من يوغوسلافيا . وهي تظهر لماذا كان على الزعماء اليوغوسلاف ان يعتبروا هذه الحوادث مشاكل سياسية يزيد في خطورتها انها اصبحت قضية من قضايا النضال الداخلي . وقد اعتبرها الشيوعيون ايضاً قضية معنوية : هل يمكن ان يكون الذي قام بهذه الاعمال هو الجيش المثالي المنتظر ؟

وقد انتهى الاجتماع مع كورنييف بدون التوصل الى اية نتائج ، بالرغم من انه لوحظ فيما بعد بأن القيادة السوفياتية قد ردت بقساوة شديدة على اعمال جنودها . وعند خروج كورنييف من الاجتماع ، عاتبني بعض الرفاق على ما قلت ، البعض منهم بحدة والبعض الآخر باعتدال . والواقع انه لم يخطر في بالي ابداً ان اقارن بين الجيش البريطاني والجيش السوفياتي ــ وقد كان لبريطانيا بعثة واحدة في بلغراد ــ ولكنني كنت اعرض حقائق واضحة واقدم ردة فعلي الخاصة تجاه مشكل سياسي ، وقد اثارني ايضاً افتقار الجنرال كورنييف الى التفهم .

وكان من الاكيد انه لم يكن يخطر في بالي ان اوجه الاهانة الى الجيش الاحمر ، الذي لم تكن محبتي له في ذلك الوقت اقل من محبة

كورنييف . ونظراً للوضع الذي كنت فيه ، فلم اكن استطيع البقاء صامتاً امام حوادث انتهاك حرمة النساء ــ وهي جريمة كنت انظر اليها دائماً على انها من أسوأ الجرائم . اضف الى ذلك اهانة جنودنا ونهب ممتلكاتنا .

كانت كلماتي هذه ، وبعض المسائل الاخرى ، سبب الانشقاق الاول بين اليوغوسلاف والزعماء السوفيات . وبالرغم من انه كان هنـاك ، في الواقع ، اسباب اكثر خطورة من هذه ــ وهي اسباب برزت فيما بعد ــ فقد اعتبرت هذه الكلمات ، باستمرار ، السبب في غضب الزعماء السوفيات وممثليهم . ويمكنني ان اذكر ، عرضاً ، ان هذا هو السبب الذي حمل ، ولا ريب ، الحكومة السوفياتية على حرماني من وسام سوفروف ، الذي منحته بعض الزعماء الرئيسيين في اللجنة المركزية اليوغوسلافية . وقد حرم منـه ايضاً الجنرال بيكو دابشيفيتش لاسبـاب مماثلة . وهـذا ما حمل رانكوفيتش وانا ، على ان نقترح على تيتو بأن يمنح دابشيفيتش وسـام البطولة اليوغوسلافي الوطني ، وذلك كرد فعل للاجراء السوفياتي . وقـد كان موقفي هـذا ايضاً احد الاسباب التي جعلت العملاء السوفيات في يوغوسلافيا يبدأون ، في اوائل عام ١٩٤٥ ، بنشر الشائعات حول ميولي « التروتسكية » . الا انهم انفسهم اضطروا للعدول عن هـذا الاتهام ، لا لسبب تفاهته ، بل سعياً الى تحسين العلاقات فيما بيننا .

ومهما يكن من أمر ، فقد وجدت نفسي ، بعد وقت قصير ، معزولاً ، لا لأن اقرب اصدقائي الي قد شجبوني وانتقدوني بقساوة ، ولا لأن الزعماء السوفيات قد بالغوا في هذا الموقف الذي بدر مني وضخموه كثيراً ، بل ربما لسبب آخر أعمق من هذا بكثير ، ناجم عـن تجاربي الداخلية الخاصة ــ وهذا يعني انني وجدت نفسي ، حتى آنذاك ، في المرحلة التي يجد نفسه فيها كل شيوعي تبنى فكرة الحزب عن نية طيبة ونكران للذات . فهو

سرعان ما يواجـه ، عاجلا أو آجلا ، ذلك التناقض الكبير بـين الفكرة وبين تطبيقها على ايدي زعماء الحزب . إلا ان الأمر ، في قضيتي هذه ، لم يكن كذلك تماماً . فقد كنت مدركاً ان الاختلاف بين ما كان متوقعاً من الجيش الأحمر وبين ما بدر منه من أعمال ـ على الرغم مـن ان المفروض فيه ان يكون جيشاً لمجتمع بلا طبقات ـ انمـا هو اختلاف ناجم عن ان هذا الجيش « لم يصبح بعد » كما يجب ان يكون ، اذ لا يزال يشكو مـن « رواسب الماضي » . لقد كانت المعضلة التي واجهتني ، في هذا الصدد ، متأتية من موقف اللامبالاة الذي اظهره الزعماء السوفيات ازاء الجرائم التي كانت ترتكب ، هذه اللامبالاة التي تجلت واضحة في رفضهم الاعتراف بها واحتجاجهم على الشكاوي التي كانت ترفع اليهم عنها .

أما نوايانا الخاصة فقد كانت كلها طيبة : ان نحافظ على سمعة الجيش الأحمر والاتحاد السوفياتي ، وقـد كانت دعاية الحزب اليوغوسلافي تبني دعائم هذه السمعة منذ سنوات . ولكن ماذا نتج عن نوايانا الطيبة هذه إلا العجرفة والرفض ، وهو موقف طالما عرف عـن الدولة الكبيرة ازاء الدولة الصغيرة ، عن القوي ازاء الضعيف .

وقد ازدادت هذه المشكلة تعقيداً لأن الممثلين السوفيات في بلادنـا لم يوفروا جهـداً في استغلال الكلمات التي تفوهت بها ، من أجـل تأييد موقفهم المتعجرف المنتقد من الزعامة اليوغوسلافية .

ما هو السبب الذي منع الممثلين السوفيات من ان يفهمونا ؟ ولمـاذا حوّرت كلماتي وبولغ بها ؟ ولماذا استغلها الممثلون السوفيات ، بهذه الطريقة المورربة ، لتحقيق اهدافهم السياسية ـ وهي تصوير الزعماء اليوغوسلاف بأنهم ينكرون جميل الجيش الأحمر الذي زعم انه : في فترة ما معينة ، قد لعب

الدور الرئيسي في تحرير عاصمة يوغوسلافيا ، وفي تنصيب الزعماء اليوغوسلاف هناك ؟

ولكن لم يكن هنالك من اجوبة على هذه الاسئلة ، وما كان يمكن ، في ذلك الوقت ، ان يكون .

لقد كنت ، كسواي ، قلقاً مضطرباً من اعمال اخرى قام بها الممثلون السوفيات هؤلاء . واضرب على هذه الأعمال مثلاً : كانت القيادة السوفياتية قد أعلنت بأنها قدمت كمية كبيرة من القمح ، كمساعدة لبلغراد. ولكنه تبين فيما بعد ان هذا القمح لم يكن سوى المحصول الذي جمعه الالمان من الأراضي اليوغوسلافية . لقد نظر السوفيات الى مساعدة القمح هذه ، والى اشياء كثيرة اخرى ، على انها غنائم حرب . وبالاضافة الى ذلك ، فقد استخدم رجال الاستخبارات السوفياتية ، بصورة جماعية ، المهاجرين من الروس البيض ، بل حتى من اليوغوسلاف ؛ وكان بعض هؤلاء من اعضاء اللجنة المركزية نفسها . فضدّ من ، ولماذا ، جرى توظيف هؤلاء الاشخاص؟ أضف الى ذلك اننا ، في حقل الدعاية واثارة القلاقل ، الذي كنت اوجهه ، شعرنا بوجود انشقاق بيننا وبين الممثلين السوفيات . ذلك ان الصحافة السوفياتية كانت تشوه ، بانتظام ، وتقلل من أهمية نضال اليوغوسلاف الشيوعيين ، في الوقت الذي كان الممثلون السوفيات يسعون فيه ، بحذر بادىء الامر ، ثم علناً شيئاً فشيئاً ، الى اخضاع الدعاية اليوغوسلافية وتوجيهها نحو اهدافهم الخاصة .

وكانت حفلات السمر والانس التي كان يقيمها الممثلون السوفيات بازدياد ، يوماً بعد يوم ، والتي حاولوا ان يجذبوا الزعماء اليوغوسلاف اليها ، تؤيد في نظري ، وفي نظر الآخرين ، وجود التناقض بين المثل

العليا السوفياتية وبين العمل على تطبيقها ــ بين ادعائهم حسن الادب في القول ، وقيامهم بما ينافي ذلك في العمل .

ان الاتصال الاول بين كلا الثورتين والحكومتين ــ بالرغم من انه قام على قواعد اجتماعية وايديولوجية متشابهة ــ لم يؤد بهما الا الى الانقسام . واذ حدث هذا الانقسام ضمن ايديولوجية مغلقة وواحدة ، فانه لم يصطبغ ، في بادىء الأمر ، إلا بالصبغة المعنوية ، وبالشعور ، من جانب اليوغوسلاف ، بالندم والاسف لعجز القيمين على الشيوعية عن فهم النية الطيبة لحزب صغير وأرض فقيرة .

ــ ٢ ــ

في شتاء ١٩٤٤ ــ ١٩٤٥ ، ذهب الى موسكو وفد حكومي كبير ، ضم اندريجا هيبرانغ ، عضو اللجنة المركزية ووزير الصناعة ، وارسو جوفانوفيتش ، رئيس الادارة العليا ؛ وميترا ميتروفيتش ، زوجتي آنذاك . وبالاضافة الى ردود الفعل السياسية ، استطاعت زوجتي ان تنقل اليّ ردود الفعل الشخصية عند الزعماء السوفيات ــ وهي ردود فعل كنت ، انا شخصياً ، شديد الحساسية بصددها .

وقد تعرض الوفد ، افرادياً وكمجموع ، للوم والتقريع ، بشأن الحالة العامة في يوغوسلافيا وشأن بعض الزعماء اليوغوسلاف . وكان المسؤولون السوفيات يبدأون عادة بالحقائق الواضحة ، ثم يبالغون بهذه الحقائق ويلجأون الى التعميم . ولكي تزداد الأمور سوءا ، كان رئيس الوفد هيبرانغ ، قد ربط نفسه ربطاً وثيقاً بالممثلين السوفيات ،

باعطائهم تقارير مكتوبة ، وتحويل استياء السوفيات الى اعضاء الوفد الآخرين . وقد دفعه الى هذا السلوك عدم رضاه عن عزله من منصبه كسكرتير للحزب الشيوعي في كرواتيا ، فضلاً عن محاولته تغطية سلوكه المشين حينما كان في السجن .

ان اعطاء المعلومات للحزب السوفياتي لم يكن بحد نفسه خطيئة مميتة في ذلك الوقت . ذلك لأن الشيوعي اليوغوسلافي لم يعتبر ان لجنته المركزية عدوة للسوفيات . وفوق ذلك ، فان المعلومات عن الوضع في يوغوسلافيا كانت متوفرة للجنة المركزية السوفياتية وفي متناول يدها دائماً . غير ان هذا الأمر ، في قضية هيبرانغ ، قد اتخذ شكل القيام بما من شأنه النيل من اللجنة المركزية اليوغوسلافية . ان ما قدمه من معلومات لم يكتشف ابداً . غير انه استناداً الى موقفه ، والى التقارير التي نقلها عنه اعضاء الوفد ، أمكن الاستنتاج الأكيد بأنه ، حتى في ذلك الوقت ، كان يعطي المعلومات للجنة المركزية السوفياتية طمعاً بالحصول على تأييدها ، وسعياً وراء تحريضها ضد اللجنة المركزية اليوغوسلافية ، علّها تجري تغيرات في هذه اللجنة ، تكون في صالحه .

لقد فعل هيبرانغ ما فعل ، ولا شك ، باسم المبادىء ، ووجد تبريراً له في الاخطاء التي لم تسلم اللجنة المركزية اليوغوسلافية من الوقوع فيها . أما السبب الحقيقي فكان يكمن في المسألة التالية : وهي ان هيبرانغ كان يعتقد بأنه يجب على يوغوسلافيا ان لا تخطط لاقتصادها ولمشاريعها الاقتصادية بمعزل عن الاتحاد السوفياتي ، بينما كانت اللجنة المركزية تؤيد قيام تعاون وثيق مع الاتحاد السوفياتي ولكن ليس على حساب استقلالنا .

على ان الضربة الفاجعة التي سددت للوفد ، قد سددها ستالين . فقد دعا الوفد كله الى اجتماع في الكرملين ، وهناك قام معه بتمثيل

مشهد لا وجود له إلا في مسرحيات شكسبير .

لقد انتقد الجيش اليوغوسلافي وطريقة ادارتــه . الا انه هاجمني انا شخصياً فقط . وبأية طريقة ! لقد تكلم بانفعــال على ما يعانيه الجيش الاحمر ، وعن الاهوال التي كان عليه مواجهتها في الحرب داخل آلاف الاميال من الاراضي القفر . وهنا بكى صارخاً : « ان جيشاً كهذا لم يهنه الا رجل كدجيلاس ! دجيلاس ، ذلك الذي كان آخر من توقعت منه هذا العمل ، والذي استقبلته ببالغ الحفاوة ! انه جيش لم يبخل بدمائه من اجلكم ! الا يعرف دجيلاس ، الذي هو ايضاً كاتب واديب ، ماهية الألم البشري وما يعانيه القلب البشري ؟ ألا يفهم لمــاذا يقوم جنـدي سار الوف الكيلومترات ، خلال الدم والنار والموت ، بمغـازلة امرأة او سلب بعض التوافه ؟ »

وكان ستالين يرفع كأسه مرات متتالية ، محيياً هذا ، مازحاً مع ذاك . حتى انه قبـّل زوجتي لأنها كانت من الصرب ، ثم ذرف دموعه مرات متوالية للصعوبات التي كان يعانيها الجيش الاحمر ، ولنكران الجميل الذي بدر من اليوغوسلاف . لقد قسم ستالين ومولوتوف الادوار بينهما ، كل بحسب ميله الخاص : فقد ركز مولوتوف ، ببرودته المعهودة ، على القضية وحرص على استفزاز الشعور ، بينما غرق ستالين في حالة مأساوية . وقد بلغت هذه المسرحية ذروتها حين صاح ستالين قائلا ، وهو يقبـّل زوجتي ، انه يقوم ببادرة الحب هذه مجازفاً بأن يتهم بالاغتصاب .

على انه لم يتحدث الا قليلا عن الاحزاب ، والشيوعية ، والماركسية ، وان يكن قــد تكلم كثيراً على السلاف ، وعن العلاقات بين الروس والسلاف الجنوبيين ــ ثم مرة اخرى ، عن التضحيات البطوليــة التي بذلها الجيش الاحمر .

وعندما روي لي هذا كله غرقت ، حقاً ، في الدهشة والذهول . واليوم يبدو لي ان ستالين قد جعل مني كبش المحرقة لأنه كان ينوي ان يكسبني الى جانبه بطريقة ما . لقد كان حماسي الصادق للاتحاد السوفياتي وله كشخصية فذة ، هو الذي دفعه الى هذا التصرف .

وكنت ، فور عودتي الى يوغوسلافيا ، قد كتبت مقالاً عن اجتماعي بستالين ، فسره المقال كثيراً . وقد لفت أحد الممثلين السوفيات انتباهي الى انني يجب ، في الطبعات التالية لهذا المقال ، ان احذف منه القول بأن قدمي ستالين كبيرتان جداً ، وان اشدد على العلاقة الوثيقة بين ستالين ومولوتوف . لقد عرف ستالين ولا بد ، وهو الذي تميّز بقدرته الخارقة على معرفة الاشخاص بسرعة واكتشاف نقاط الضعف فيهم ، انه لا يستطيع ان يفوز بي عن طريق الطموح السياسي ، اذ انني لم أكن احفل بهذه الاشياء ، ولا على اسس عقائدية ، اذ انني لم احب الحزب السوفياتي أكثر من حبي للحزب اليوغوسلافي . كان يستطيع ان يؤثر علي فقط عن طريق عواطفي ـ عبر حماستي واخلاصي ـ فاختار هذه الطريق .

على انه بالرغم من ان حساسيتي واخلاصي كانا من الصفات القوية فيّ ، إلا انهما سرعان ما كانا يتحولان الى شعور معاكس تماماً عندما اواجه عدم الاخلاص وعدم العدل . ولهذا السبب لم يجروء ستالين على ان يستخدمني علناً . وقد أصبحت عنيداً أكثر فأكثر ، وثابتاً في موقفي ، لأن التجربة كشفت لي عن النوايا السوفياتية الظالمة ـ اي حين حررت نفسي من انسياقي العاطفي .

واليوم أجد انه من الصعب حقاً تمييز الاعمال المسرحية التمثيلية التي كان يقوم بها ستالين ، من الاعمال الحقيقية . الا انني ، اعتقد ، شخصياً ،

بأنه من المستحيل ، فيما يتعلق بستالين ، فصل هذه عن تلك . فقد كانت المداجاة ، بالنسبة اليه ، أمراً تلقائياً ، حتى ليصبح هو نفسه مقتنعاً بحقيقة ما كان يدعيه . لقد استطاع ان يكيف نفسه بسهولة وفق اي اتجاه قد يتخذه الحديث ، بل حتى وفق الشخصية التي يتحدث اليها .

وفي أية حال ، لقد عاد الوفد يائساً وغير راض عما جرى له هناك .

وفي هذه الاثناء ، ازدادت عزلتي ، خصوصاً للدموع التي ذرفها ستالين على « عدم وفائي » نحو الجيش الاحمر . وعلى الرغم من ازدياد هذه العزلة ، فانني لم استسلم للقنوط والاسى ، بل حوّلت اهتمامي أكثر فأكثر الى الكتابة ، واجداً فيها ملجأ من الصعوبات ، ومن سوء الفهم الذي كان يقلقني .

- ٣ -

ودار الزمن دورته . ولم يكن للعلاقات بين يوغوسلافيا والاتحاد السوفياتي ان تبقى كما عيّنتها وحددتها البعثات العسكرية والجيوش . فقد تضاعفت الروابط وتوثقت عرى العلاقات ، مما تطلب ان تتخذ شكلا دولياً .

وفي شهر نيسان ، كان من المقرر ان يسافر وفد رسمي الى الاتحاد السوفياتي لتوقيع معاهدة للمساعدة المتبادلة مع حكومته . وقد رئس تيتو الوفد ، ومعه وزير الشؤون الخارجية الدكتور شوباشيتش . وكان بين اعضاء هذا الوفد وزيران للاقتصاد الوطني : ب. اندرجيف ، ون. بيتروفيتش. أما كيف اصبحت عضواً في هذا الوفد ، فيمكن ان اعزوه الى الرغبة في تصفية النزاع الذي كان ما زال عالقاً في الاذهان حول « الاهانة » التي اتهمت بتوجيهها للجيش الاحمر . لقد ضمني تيتو ببساطة الى الوفد ، ولم

يعترض الجانب السوفياتي على ذلك . وهكذا ركبت الطائرة مع بقية الاعضاء .

كان ذلك في أوائل نيسان . وبسبب رداءة الطقس ، أخذت الطائرة ترتج كثيراً ، فأصيب تيتو وأكثرية حاشيته بالاعياء والدوخة . وقد أحس ملاحو الطائرة بالضيق . ولم انجح انا من الانزعاج ، ولكن على نحو آخر . ذلك انني شعرت ، منذ اللحظة التي علمت بها بأمر الرحلة حتى اجتماعي بستالين ، كأنني ارتكبت خطيئة ما . على انني لم أكن محطئاً ، ولم يكن لدي اي سبب لان أشعر كذلك . وقد كنت ، وأنا في بلغراد ، قد أحطت بجوّ اتهامي متزايد ، كما لو انني كنت شخصاً قد اساء التصرف فانخفض مقامه في عيون الناس . وهكذا لم يبق له الا ان يجد شفيعاً لنفسه بطريقة ما — ان يلقي بنفسه تحت رحمة ستالين وكرم خلقه .

وفيما اقتربت الطائرة من موسكو ، أخذ شعوري بالعزلة يكبر في داخلي . وللمرة الاولى احسست بان رفقائي ، بل اخوتي في السلاح ، قد تخلوا عني . ذلك لان اي اتصال بي قد يعرض وضعهم في الحزب للخطر ، ويظهرهم ، هم ايضاً ، بمظهر « المنحرفين » .

كانت علاقتي باندرجيف قد توثقت بالحرب وبآلام السجن معاً — فليس كالحرب والسجن ما يكشف عن طباع الناس والعلائق بينهم . وكانت هذه العلاقة تمتاز بالمرح والدعابة ، أما الآن ؟ لقد بدا لي انه كان يشفق عليّ ، عاجزاً عن مساعدتي ، في حين انني لم اكن اجرؤ على الاقتراب منه — خشية ان افرض نفسي عليه فرضاً ، أو أحمله على الأخذ والرد معي ، مما قد يسيء اليه ويحرج موقفه . وهكذا كانت حالي ايضاً مع بيتروفيتش الذي عرفته جيداً ايام النضال والعمل في الخفاء . كان يغلب على صداقتنا الطابع الفكري . اما الآن ، فلم اكن اجرؤ

على الدخول معه في حديث ، كتلك الاحاديث التي كنا نعقدها عن تاريخ الصرب السياسي .

اما فيما يتعلق بتيتو ، فقد اتخذ موقفاً صامتاً من هذه القضية كلها ، كأن شيئاً ما لم يحدث ، فلم يبد اي وجهة نظر او شعور تجاهي . على اني خشيت انه ، بطريقته الخاصة ، ولأسباب سياسية ، قد وقف الى جانبي . ولذلك احضرني معه ، وامتنع عن اتخاذ اي موقف .

وهكـــذا كنت اختبر اول نزاع بين ضميري الانساني البسيط ، اي الوعي الانساني المشترك للخير والحق ، وبين البيئـــة التي كنت اعيش فيها ، والتي كان عملي اليومي يربطني بها — اعني تلك الحركة التي كانت تحدها اهدافها المثالية وتقيدها امكاناتها الواقعية . الا ان هـــذا النزاع لم يتخذ ، في ذلك الوقت ، شكله هذا في واعيتي ؛ بل لقد بدا وكأنه اصطدام بين نواياي الطيبة لتحسين العالم وبين الحركـة التي كنت انتمي اليها وافتقار القائمين عليها الى التفهم .

وكان قلقي يزداد كلما اقتربنا من موسكو .

لقد انبسطت تحتنا ارض كان سوادها قـــد برز منذ قليل من تحت الثلوج ، ارض هدّها القحط ، وفي اماكن كثيرة ، القنـابل — ارض قفر ومهجورة . كانت السماء غائمة ، وكئيبة ، ولا نفاذ اليها . ولم يكن هنالك ، بالنسبة اليّ ، ارض وسماء ، حين عبرت عالماً خيالياً شعرت ، في الوقت نفسه ، انه حقيقي اكثر من اي عالم عشت فيه حتى الآن . كنت اطير متأرجحاً بين السماء والارض ، بين الضمير والتجربـة ، بين الامنية وامكان تحقيقها . ولم يبق في ذاكرتي الا ذلك التأرجح الخيالي المؤلم الذي لم يكن فيه اي اثر لذلك الشعور السلافي البدائي ، او حتى

لتلك الروح الثورية التي تميّز بهـا لقائي الاول بالارض السوفياتية وزعيمهـا .

وكان ، على رأس هذا كله ، الدوخة التي اصيب بها تيتو . لقـد استغل كل قوة في جسده ، بعد ان انهكه التعب واخضر لونه ، لكي يلقي خطاباً ترحيبياً ويحضر الحفلات التي اقيمت على شرفنا . وفي المطار ، صافحني مولوتوف ، الذي رئس لجنة الاستقبال ، ببرودة ، وبـدون ان يبتسم او يبدي اية اشارة الى انه كان يعرفني . وكم شق علينـا ايضاً ان ندعهم يأخذون تيتو الى فيلا خاصة ، في حين وضعوا الباقين منّا في فنـدق متروبول .

وفي اليوم الثاني ، او اليوم الذي تلاه ، رن جرس التلفون في شقتي . وسمعت صوتاً نسائياً يقول : « انا كاتيا . »

وسألت «كاتيا من ؟ »

« انها انا ، كاتيـا ، الا تذكر ؟ يجب ان اراك . يجب ، فقط ، ان اراك » .

ومرت في رأسي ، بسرعة ، الفتيات اللواتي يحملن هذا الاسم ـ ولكنني لم اكن اعرف واحدة منهن ـ واللواتي ، في اعقابهن ، جاء الشك . لقد كان جهاز الاستخبارات السوفياتي على علم بالموقف الصارم الذي كان يقفه الحزب الشيوعي اليوغوسلافي من الاخلاق ، فاراد رجال هذا الجهاز ان ينصبوا فخاً للايقاع بي .

ولم اجـد في ذلك شيئاً غريباً او جديـداً ، اذ ان موسكو « الاشتراكيـة » ، كأي مدينـة اخرى ، مليئـة بالمومسات غـير الشرعيات . بـل انني كنت اعرف اكثر من ذلك . وهو انه كان يتعذر على هؤلاء المومسات ، إلا بارادة جهاز الاستخبارات ، الاتصال

بالاجانب الكبار ، الذين كانت الرقابة عليهم لا مثيل لها في اي مكان آخر في العالم . وبصرف النظر عن هذه الافكار التي راودتني ، فقد فعلت ما كان يجب عليّ ان افعله ، اذ قلت بهدوء : « دعيني ! » ثم اطبقت السماعة .

وخامرني الشك في انني كنت الهدف الوحيد في هذه المحاولة المفضوحة . ومع ذلك ، فقد شعرت ، بالنظر لرتبتي العالية في الحزب ، انه من الواجب التأكد من ان ذلك قد حدث لبيتروفيتش واندرجيف ، ام لا . ثم انني كنت اريد ان اعرب عن شكواي ، مني اليهم .

نعم . لقد رن جرس هاتفيهما ايضاً ، ولكن بدلا من ان تكون كاتيا على الخط ، كانت هنالك ناتاشا وفوفا !

وهنا داخلني مزيج من الاحاسيس ـ ارتياحي لأنني لم اكن الهدف الوحيد ، وشكي ، من جهة اخرى ، الذي ازداد وعمق . لماذا كل هذا ؟ ولم يخطر لي ابداً ان استفهم من الدكتور شوباشيتش اذا كان قد تعرض لمحاولة مماثلة . اذ انه لم يكن شيوعياً ، ولذلك كان من غير المستحسن ان اظهر امامه الاتحاد السوفياتي ووسائله بهذا المظهر الرديء ، وبخاصة ان هذه الوسائل قد وجهت ضدنا ، نحن الشيوعيين . ومهما يكن من أمر ، فقد كنت واثقاً من ان اي « كاتيا » لم تقترب من شوباشيتش .

لقد عجزت ، آنذاك ، عن التوصل الى الخلاصة التالية ، وهي ان الشيوعيين هم الذين كانوا القاعدة والوسيلة اللتين كان الاتحاد السوفياتي يستخدمهما لتثبيت نفوذه في بلدان أوربا الشرقية . وكم داخلني الرعب من تلك الذرائع التي كان يتوسلها الاتحاد السوفياتي ، وكم شعرت بالاستياء لإخضاع شخصي لمثل هذا التصرف المشين .

وفي ذلك الحين ، كنت لا ازال قادراً على الاعتقــاد بامكان بقائي شيوعياً ، وبقائي ، في الوقت نفسه ، رجلا حراً .

ـ ٤ ـ

لم يحدث شيء هام عند توقيع معاهدة التحالف بين يوغوسلافيا والاتحاد السوفياتي . فقد كانت هذه المعاهدة امراً روتينياً عادياً ، وكانت مهمتي في المفاوضات تنحصر في الترجمة .

وقد تم توقيع المعاهــدة في قصر الكرملين ، مساء ١١ نيسان ، بحضور بضعة من الرجال الرسميين ، ومن المصورين .

وفي حفلة التوقيع على هــذه المعاهدة ، لم يجر شيء يلفت النظر إلا عندما نهض ستالين ، وفي يده كأس من الشنبانيا ، ودعا أحد الخدم ليبادله الانخاب . وقد شعر الخادم بالحرج ، ولكن حين خاطبه ستالين قائلاً : « ماذا ، ألا تريد ان تشرب نخب الصداقة السوفياتية اليوغوسلافيـة ؟ » ، قبض على الكأس وشربها حتى الثمالة . لقد كان هذا المشهد غوغائيـاً ، مغرقاً في الغرابة ، ولكن الحاضرين استقبلوه بالابتسام ، كما لو كان تعبيراً عن احترام ستالين لعامة الشعب وقربه منهم .

كانت هذه هي فرصتي الاولى للاجتماع بستالين مرة اخرى . وقد بدا لي ان سلوكه يفتقر الى التأدب واللياقة ، مع انه خلا من قساوة مولوتوف ووده المصطنع . ولم يوجه ستالين كلمة واحــدة اليّ شخصياً . وبذلك اتضح ان الخلاف حول سلوك الجيش الاحمر لم ينسَ ولم يغتفر . وهكذا تركت اتقلب على جمر الامل بالصفح والغفران .

ثم ان ستالين لم يقل شيئاً ، خلال المأدبة ، لرجال حاشيته في الكرملين .

وبعد الانتهاء من تناول الطعام، شاهدنا بعض الافلام. واذ قال ستالين انه سئم صوت اطلاق النـــار، اختاروا فيلماً لا تـــدور حوادثه عن الحرب، بل عن مزرعة جماعيـــة صغيرة. وكان ستالين يدلي بالتعليقات طوال العرض. ثم شاهدنا فيلماً ثانياً، أخـــذ قبل الحرب الاخيرة، موضوعه «اذا وقعت الحرب غداً». وقـــد شنت الحرب في ذلك الفيلم باستخدام الغاز السام، في حين كانت جماعات من البروليتاريا تهب للثورة في اعقاب الجنود الالمان. وفي نهاية الفيلم، قال ستالين بهدوء: «هذا لا يختلف كثيراً عما حدث في الواقع، إلا بعدم وجود الغاز السام وعـــدم قيام البروليتاريا الالمانية بالثورة.»

واخيراً تعب الجميع من الاكل، وشرب الانخاب، ومشاهدة الافلام. ثم صافحني ستالين مرة اخرى، دون ان يتفوه بكلمة واحدة. غير انني كنت قد اصبحت آنذاك اكثر هدوءاً ولامبالاة، ولم أعلم لماذا. ايكون لأن الجو اصبح اكثر صفاء ومرحـا؟ ام لأنني كنت مصمماً وعازمـاً في قرارة نفسي؟ ربما للسببين معاً. وعلى كل حال، فالحياة ممكنة بدون ستالين!

وبعد ذلك بيوم واحد او يومين، اقيمت مأدبة رسميـــة في قاعـــة كاترين. وبحسب البروتوكول السوفيـاتي آنذاك، أُجلس تيتو الى يسار ستالين والى يمين كالينين، رئيس المجلس السوفياتي الاعلى. وقد أُجلست انا الى يسار كالينين. وجلس مولوتوف وشوباشيتش قبالة ستالين وتيتو، في حين جلس الضباط السوفيات واليوغوسلاف في دائرة حول المائدة.

وبـــدا الجو اكثر اصطناعاً، لأن جميع الحاضرين، ما عدا الدكتور شوباشيتش، كانوا شيوعيين. وقد جرت المخاطبة بلقب «سيد»، وتصرف

الجميع بحسب البروتوكول الدولي ، كأنما ضم هذا الاجتماع ممثلين لحكومتين تختلفان في الانظمة والعقائد .

وفيما عدا الانخاب والبروتوكول ، فقد تصرفنا كرفاق ، اي كرجال تضمهم حركة واحدة ، وتقرب فيما بينهم اهداف واحدة . لقد كان هذا التناقض بين السلوك الرسمي والحقيقة امراً بالغ الأثر ، لأن العلاقات بين الشيوعيين السوفيات واليوغوسلاف كانت لا تزال ودية ، لم يؤثر عليها حب السيطرة السوفياتي ، والمنافسة في بسط النفوذ على العالم الشيوعي . الا ان الحياة لا تحترم الرغبات والاماني ، بل انها تفرض الحالات التي لا يمكن لاحد ان يستبق وقوعها .

لقد كانت العلاقات بين الاتحاد السوفياتي والحلفاء الغربيين ما تزال في شهر العسل . وكانت الحكومة السوفياتية تأمل ، عن طريق مثل هذا الاجراء الرسمي ، ان تتجنب الاتهام بانها لا تعامل يوغوسلافيا كدولة مستقلة ، وما ذلك إلا لأنها دولة شيوعية . ولكنها فيما بعد ، حين تمركزت في اوروبا الشرقية ، اصبحت تصر على إلغاء البروتوكول وما اليه من الرسميات ، على انها اجراءات برجوازية ونزعات « قومية » تعصبية .

كان ستالين هو الذي كسر طوق الرسميات . ذلك انه كان ، هو وحده ، القادر على ذلك ، دون ان يعرض نفسه لخطر الاتهام باتخاذ خطوة خاطئة . فقد وقف ببساطة ورفع كأسه مخاطباً تيتو بـ « ايها الرفيق » ، ثم اضاف قائلاً انه لن يدعوه بـ « يا سيد » . وقد اوجد هذا العمل جوّاً ودياً حقيقياً ، ابتسم له الدكتور شوباشيتش ابتسامة الرضى ، وان يكن يصعب التصديق بانه فعل ذلك باخلاص . فلقد عرف هذا السياسي بالممالأة ، اذ لم تكن له مبادىء أو اسس ثابتة على الاطلاق .

وبدأ ستالين يسرد النكات ويوجه سهام دعابته ومزاحه عبر

المائدة ، ويقهقه مبتهجاً مسروراً . وقد استمر الجو هكذا حتى النهاية .

وكان « العم » العجوز كالينين ، الذي ضعف بصره كثيراً ، يجد صعوبة قوية في ايجاد كأسه ، وصحنه ، ورغيفه . فكنت اساعده في ذلك طوال الوقت . وكان تيتو قد قام بزيارة بروتوكولية له قبل ساعتين ، وابلغني ان الرجل الشيخ ليس عاجزاً تماماً . الا ان ما اورده تيتو ، بالاضافة الى العبارات التي كان كالينين يتلفظ بها ، قد اقام الدليل على العكس .

لقد كان ستالين ، بالطبع ، على علم بعجز كالينين . فقد داعبه بقساوة ، حين طلب سيجارة يوغوسلافية من تيتو ، اذ قال له : « لا تأخذ شيئاً ، انها سجائر رأسمالية ! » فاضطرب كالينين ووقعت السيجارة من بين اصابعه المرتجفة ، بينما ضحك ستالين وبدت على وجه علامات الهزء والسخرية . وبعد ذلك بقليل ، رفع ستالين كأسه شارباً نخب « رئيسنا » كالينين . على ان تلك لم تكن سوى كلمات مهذبة اختيرت لكي تقال لشخص لم يكن إلا رئيساً لا حول له ولا طول .

لقد ظهر « تأليه » ستالين في هذه الحلقة الواسعة من الناس اكثر وضوحاً . واليوم استطيع ان اقول ان تأليه ستالين ، او « عبادة الشخصية » كما يسمونها ، كان من صنع حاشية ستالين والبيروقراطيين الذين تطلبوا مثل هذا الزعيم ، بقدر ما كان من صنعه هو ايضاً . واذ اصبح ستالين إلهاً معبوداً ، قوي سلطانه الى حد توقف عنده عن الاهتمام بحاجات اولئك الذين كانوا يمجدونه ، وبرغباتهم ومطامحهم .

لقد كان ، وهو الرجل القصير القامة ، يعبر القاعات الامبراطورية الرخامية ، فتنفتح امامه الممرات والابواب ، وتتبعه نظرات تفيض

بالاعجاب ، فيما أصغت الآذان لكل كلمة تفوه بها . اما هو ، الواثق من اقواله ومن اعماله ، فلم يكن ينتبه لكل هـــذا . كان وطنه مهدماً وجائعاً ومتعباً ، غير ان جيوشه وماريشالاته كانوا ، قد ناءوا بالشحم واللحم وثقل الاوسمة ، واسكرتهم الفودكا والنصر ، يطأون باقدامهم نصف اوروبا . وكان هو على يقين من انهم سيطأون باقدامهم النصف الآخر في دورة ثانيـــة .

كان يعلم انه كان واحـــداً من اقسى الحكّام واشدهم استبداداً في تاريخ البشرية . على ان ذلك لم يقلقه قط ، وذلك لاقتناعه بأنه انما ينفذ حكم التاريخ . ولم يكن يزعج ضميره شيء ، بالرغم من ان الملايين قـــد اهلكت باسمه وبالاوامر التي اصدرها ، وبالرغم من انه اعدم الالوف من معاونيه بتهمة الخيانة ، وما كان ذنبهم الا عـــدم ثقتهم بانه كان يقود الشعب الى السعادة والحرية والمساواة .

لقد كان صراعه نحو السلطان طويلاً ، ومحفوفاً بالخطر ، وخفيـــاً . وما ذلك الا لأن الاعداء كانوا قلة وضعفاء . غير انه نجح ، والنجاح هو المقياس الوحيد للحق ! اذ ما هو الضمير ؟ هل هو موجود ؟ لم يكن للضمير مكان في فلسفته ، فكيف في اعماله . ومهما قيل ، فان الانسان وليد القوى المولدة .

وكان ملهم الشعراء ، ولطالما عزفت الجوقات الموسيقيـــة الاناشيد الطويلة على شرفه ، وكتب الفلاسفـــة في المعاهد المجلدات عن اقواله ، وقضى الشهداء على اعواد المشانق وهم يلفظون اسمه . والآن ، ها هو قد انتصر في اعظم حرب في تاريخ بلاده وفي التاريخ ، وغدا سلطانه مطلقاً على سدسي الكرة الارضية ، وظله ما يزال في امتداد . وهذا ما

اقنعه بأن مجتمعه خلو من المتناقضات ، وان هـذا المجتمع يتفوق على جميع المجتمعات الاخرى ، من جميع الوجوه .

وكان يمزح ايضاً مع رجال حاشيته ـ « رفقائه » ! وهو لم يفعل ذلك تنازلا منه عن عليائه . فتنازله هـذا لم يظهر إلا في كيفية إرسال نكاته ، وهي انه لم يرسلها ابداً على حسابه الخاص . فقد كان يمزح لأنه احب ان ينزل من عليائه . أوَلم يعش بين البشر ، وكان عليه ان يري ، من حين الى حين ، ان الانسان ليس شيئاً بدون الجماعة ؟

ولم انج انا ايضاً من ستالين ومزاحه . غير انني ، في زاوية صغيرة من عقلي ووجداني ، كنت متيقظاً وقلقاً : لقد لاحظت غمزه من قناتي ، انا ايضاً ، ولم استطع ان اقبل ، ضمناً ، طريقة ستالين هـذه في المزاح ، أو تجنبه المقصود من توجيه اية كلمة انسانية ، ودية ، الي .

ـ ٥ ـ

على انني ، مع هذا ، دهشت ، بسرور ، عندما دعيت ، انا ايضاً ، الى حفلة خاصة في فيللا ستالين . وبالطبع ، لم يعرف الدكتور شوباشيتش شيئاً عن هذه الحفلة ، اذ لم يدع اليها سوانا ، نحن الوزراء الشيوعين . أما من الجانب السوفياتي ، فقد حضرها اقرب معاوني ستالين اليه : مالنكوف ، وبولغانين ، والجنرال انطونوف ، وبيريا . وبالطبع ، مولوتوف .

وكالعادة ، وجدنا انفسنا حوالي الساعة العاشرة ليلاً حول مائدة ستالين . وكنت قد وصلت بالسيارة مع تيتو . وقد جلس بيريا على رأس

الطاولة والى يمينه مالنكوف ، ثم أنا ومولوتوف ، ثم اندرجيف وبيتروفيتش . وجلس الى يسار ستالين كل من تيتو ، وبولغانين ، والجنرال انطونوف مساعد رئيس الأركان العامة .

كان بيريا أقرب الى القصر منه الى الطول ، ولكن لم يكن في حلقة ستالين من هو اطول منه . وكان هو أيضاً ضخماً بعض الشيء ، يصطبغ وجهه بلون اصفر شاحب . وكانت يداه طريتين ، قصيرتين . وقد ذكرني فمه المربع ، فجأة ، بصورة فوجكوفيتش الضابط في البوليس الملكي في بلغراد الذي اختص في تعذيب الشيوعيين . وكم بذلت من الجهود لعدم التفكير بهذه المقارنة المزعجة ، الا انها كانت تلح على دماغي لسبب شدة التشابه حتى في تعابير الوجه – تعابير الرضى عن النفس ، والسخرية الممزوجة بالقسوة والشعور بالوحدة .

وكان بيريا ، كستالين ، من مواليد جورجيا . إلا ان أحداً لم يكن يستطيع ان يستنتج ذلك من ملامحه . ذلك ان أهالي جورجيا ، عادة ، يميلون الى نحافة البنية وسمرة اللون . وهو ليس كذلك . بل يتبادر اليك انه قد يكون سلافياً او ليتوانياً ، أو مزيجاً ما من مختلف الاجناس .

وكان مالنكوف ايضاً اقصر منه واسمن ، لكن الملامح الروسية بادية على وجهه مع بعض الملامح المنغولية – اسمر اللون ، بارز الخدين . وكان يبدو لك منكمشاً ، وحذراً ، وضعيف الشخصية . الا ان وراء تلك الطبقات المتراكمة من الشحم واللحم ، كان يقبع شخص آخر ، نشيط وحيوي ، وذو عينين ذكيتين ، متأهبتين ، سوداوين .

لقد عرف عنه ، منذ فترة طويلة ، بأنه ساعد ستالين في قضايا الحزب . والواقع ان جميع القضايا العائدة الى التنظيمات في الحزب ، وترقية وطرد اعضائه كانت بين يديه . وكان مالنكوف هو الرجل الذي اخترع

« جداول الكادر » ، وهي عبارة عن سيرة مفصلة لحيـاة جميع الاعضاء والمرشحين للعضوية ، في حزب ضمّ ملايين الاشخاص . وقـد اغتنمت فرصة اجتماعي به لأسأله عن الكتاب الذي وضعه ستالين وعنوانه « حول المعارضة » ، والذي صودر من الاسواق لأنه ذكر مرات عديدة تروتسكي وبوخارين وغيرهما . وفي اليوم التالي تسلمت نسخة مستعملة من الكتاب ، وهو الآن في مكتبتي .

وكان بولغانين يرتدي بذة جنرال ، وكان مائلاً الى السمنة ، ووسيم الطلعة ، وعلى وجهه ملامح روسية واضحة . اما الجنرال انطونوف فقد كان ما يزال شاباً ، ووسيماً جـداً ، واسمر اللون . وهو ايضاً لم يكن يقحم نفسه في المحادثة ، اذا لم يكن فيها ما يعنيه .

ولما كنت قد جلست مقابل ستالين وجهاً لوجه ، فقد استعدت الثقة فجأة ، بالرغم من انه لم ينتبه اليّ لوقت طويل ، او بالاحرى ، ليس قبل ان ادفأت الكحول الجو . وساعد شرب الانخاب والمزاح في اعطاء ستالين الوقت المناسب لتصفية الخلاف معي .

لقد فعل ذلك بشيء من الدعابة ، اذ ملأ لي نصف كأس من الفودكا ودعاني لأن اشرب نخب الجيش الاحمر . الا انني لم افهم نواياه فوراً ، فطلبت ان اشرب نخب صحتـه . اما هو فاصرّ قائلاً : « لا . لا . اشرب نخب الجيش الاحمر فقط . ماذا ؟ الا تريـد ان تشرب نخب الجيش الاحمر ؟ »

وبالطبع ، شربت ، وان كنت ، حتى مع ستالين ، اتجنب شرب اي شيء مـا عدا البيرة . وما ذلك إلا لأنني ، اولاً ، لم اكن احب الكحول ، ولأنني ، ثانياً ، لم اكن احب السكر .

وعندها سألني ستالين عن حادثة الجيش الاحمر . فاوضحت له بأنني

لم اكن انوي اهانة الجيش الاحمر ، بل كنت آمل في لفت الانتباه الى الاخطاء التي ارتكبها بعض جنوده ، والى الصعوبات السياسية التي كانوا يخلقونها لنا .

وقاطعني ستالين قائلا : « لا بـد انك قرأت دوستويفسكي . فهل ترى كم هي معقدة روح الانسان ، ونفسية الانسان ؟ حسناً اذن ، تصور ذلك الرجل الذي حارب من ستالينغراد الى بلغراد ، سائراً فوق ألوف الكيلومترات من ارضه الخربة ، وفوق جثث رفاقه وأعز الناس الى قلبه ! كيف يستطيع هذا الانسان ان يتصرف بصورة طبيعية ؟ وما هو المشين ، بعد ذلك ، في ان يحاول ان يرفه عن نفسه قليلا مـع امرأة ؟ لقد تصورت ان الجيش الاحمر مثالي . وهو ليس مثـالياً ولا يمكن ان يكون ، حتى لو انه لم يحتو على نسبة معينة من المجرمين ــ إذ اننا فتحنا ابواب السجون على مصاريعها وادخلنا كل سجين في الجيش . واليك بهذه الحادثة الطريفة : حاول احد ضباط السلاح الجوي استدراج امرأة ، فانبرى له احدهم لحمايتها . فما كان من الضابط الا ان سحب مسدسه صائحاً : «آه ، انت ، ايها القذر !» ثم اطلق عليه النار . وقد حكم على الضابط بالموت ، لكنني عرفت بالقضيـة واجريت بعض التحقيقات ــ اذ لي الحق في ذلك بوصفي القائد الاعلى في زمن الحرب ــ ثم اطلقت سراح الضابط وارسلته الى الجبهة . انه الآن احد ابطالنا . ان على الانسان ان يفهم الجندي . الجيش الاحمر ليس مثالياً . المهم هو انه يحارب الالمـان ــ وهو يحاربهم جيداً . وما سوى ذلك لا شأن له . »

وفور عودتي من موسكو سمعت ، ويا للرعب ، مثلا ابعد مغزى عن موقف ستالين « المتفهم » نحو اخطاء جنود الجيش الأحمر . فقـد اقدم

الجنود السوفيات ، اثناء عبورهم « بروسيا » الشرقية ، على قتل جميع اللاجئين الالمان من نساء واطفال . وقد نقل خبر ذلك الى ستالين وسئل : ماذا يجب ان يفعل ؟ فاجاب : « اننا نسرف في إلقاء المواعظ على جنودنا ... فلنترك لهم قليلا من حرية التصرف ! »

وقد سألني تلك الليلة في الفيللا : « وماذا عن الجنرال كورنييف رئيس بعثتنا هناك ، اي نوع من الرجال هو ؟ »

غير انني تجنبت ان اقول أي شيء يسيء اليه أو الى رجال البعثة هناك ، بالرغم من انه يمكن قول جميع الاشياء عنهم . الا ان ستالين نفسه قال : « هذا الرجل المسكين ليس غبياً ولكنه سكير ، سكير لا أمل بشفائه . »

ثم أخذ ستالين يمزح معي ، وبخاصة عندما لاحظ انني اشرب البيرة فقط ، فقال : « ان دجيلاس يشرب البيرة هنا مثل الالمان ، مثل الألمان ـ انه الماني . اقسم لكم ، انه الماني ! »

لم تعجبني هذه النكتة على الاطلاق . فقد كان الكرة للالمان في ذلك الوقت ، حتى للاجئين الشيوعيين منهم ، على اشده في موسكو . إلا انني تقبلت النكتة بلا غضب او تذمر ضمني .

وبعد هذا ، بدا ان الخلاف حول سلوك الجيش الأحمر قد انتهى ، وعادت علاقة ستالين بي الى سيرها الودي العادي .. وقد استمرت هكذا حتى حدوث الخلاف بين اللجنة المركزية السوفياتية واللجنة المركزية اليوغوسلافية عام ١٩٤٨ ، عندما أعاد ستالين ومولوتوف ، في رسائلهما ، الى الذاكرة تلك « الاهانة » التي وجهتها الى الجيش الأحمر .

وكان ستالين يداعب تيتو بتعمد واضح ـ على نحوٍ كان يحمل اللؤم بقدر ما يحمل المزاح . فقد تكلم بسخرية عن الجيش اليوغوسلافي ، في حين

امتدح الجيش البلغاري . وكانت الوحدات اليوغوسلافية في الشتاء السابق قد ضمت اليها عدداً من المحاربين الذين اشتركوا للمرة الأولى في هجمات خطيرة ، ولذلك اصيبت تلك الوحـدات ببعض الانكسارات . وقد استغل ستالين الفرصة ليشير الى ان « الجيش البلغاري أفضل من الجيش اليوغوسلافي . لقد واجه البلغاريون الصعوبات والاعداء المندسين داخل صفوفهم ولكنهم ابلوا بـلاءً حسناً ـ وكل شيء في موضعه الآن . ان الجيش البلغاري عظيم جداً ومنظم ، أما جنودكم انتم فما زالوا هواة وغير قادرين على الحرب العنيفة في الجبهة . ففي الشتاء الماضي دمرت فرقة المانية واحدة كتيبة كاملة من جيشكم . فرقة تنتصر على كتيبة ! »

وبعد ذلك بفترة قصيرة ، اقترح ستالين شرب نخب الجيش اليوغوسلافي الا انه لم ينسَ ان يضيف الى ذلك قوله : « انه الجيش الذي يحارب جيداً على أرض منبطحة ! » وقد امتنع تيتو عن اظهار اية ردة فعل تجاه تعليقات ستالين . فحين كان ستالين يدلي بملاحظة سيئة عنا ، كان تيتو ينظر اليّ بصمت وهو يبتسم مرغماً ، وكنت ابادله النظر بعطف وولاء . ولكن عندما قال ستالين ان الجيش البلغاري أفضل من جيشنا ، لم يستطع تيتو ان يتحمل ذلك فصاح قائلا : « ان الجيش اليوغوسلافي سينقذ نفسه بسرعة من ضعفاته جميعاً . »

لم يكن عسيراً على المرء ان يلاحظ ان العلاقـة بين ستالين وتيتو كانت ذات معنى خاص . لقد كانت علاقة متصلبة ـ كأنما لهذين الرجلين حقد يحمله واحدهما تجاه الآخر ، ولكنه يكتمه لسبب خاص به . ولقد حرص ستالين على ان لا يسيء الى تيتو شخصياً ، بأي طريقة من الطرق ، ولكنه في الوقت نفسه استمر في توجيه الانتقاد ضد بعض ما يجري في يوغوسلافيا . ومن ناحية اخرى ، فقد عامل تيتو ستالين باحترام ، اي

كما يتصرف الانسان نحو من هو اعلى مرتبة منه . على ان تذمره لم يكن يخفى على احد ، لا سيما عندما كان ستالين يدلي بملاحظات حول الوضع في يوغوسلافيا .

وفي اثنـــاء الحديث ، اشار تيتو الى ان هنالك مظاهر جديـــدة في الاشتراكية ، وان الاشتراكية تحقّق اليـــوم بطرق مختلفة عما كانت عليه في الماضي . وقد اعطى هذا الرأي ستالين فرصة للقول : « ان الاشتراكية ممكنة اليوم حتى تحت التاج البريطاني . ان الثورة لم تعد ضرورية في كل مكان . ومنذ فترة وجيزة ، زارنا وفد عمالي بريطاني ، فتحدثنا معاً عن هذه المسألة بالذات . نعم ، لقد طرأت عوامل جديدة عديدة . نعم ، ان الاشتراكية ممكنة تحت حكم ملك انكليزي . »

ولم يكن ، ستالين ، كما هو معروف جيداً ، يبدي مثل هذا الرأي علناً على الاطلاق . وقد فاز حزب العمال البريطاني بالاكثرية ، بعـــد وقت قصير ، واستطاع تأميم حوالي عشرين بالمئة من الانتاج الصناعي . ومع ذلك ، فلم يعترف ستالين ابداً بهذه الاجراءات على انها اشتراكية ، او بأن الحزب العمالي كان اشتراكياً . وانني ازعم انه لم يفعل ذلك إلا للخلاف الذي كان قائماً بينه وبين الحكومة العمالية البريطانيـــة حول السياسة الخارجية .

وفي الحديث حول هذه المسألة ، قلت ان في يوغوسلافية ، من حيث الجوهر ، حكومة شبيهة بالحكومة السوفياتيـــة . فالحزب الشيوعي يحتفظ بالوظائف الرئيسية ، وليس هنالك حزب معارض ذو خطر . الا ان ستالين لم يوافق على هذا ، وقال : « لا . ان حكومتكم ليست سوفياتية . انها مزيج من نوع حكم ديغول في فرنسا والحكم السوفياتي . »

وقـــال تيتو ان ولادة شيء جديد قـــد تمت في يوغوسلافيا . الا

ان البحث في هذا الموضوع وقف عند هذا الحد . وقد كنت ، في قرارة نفسي ، غير موافق على وجهـة نظر ستالين ، ولكنني كنت على وفاق مع آراء تيتو .

ثم عرض ستالين وجهات نظره حول طبيعة الحرب التي كانت قائمة ، فقال : « هذه الحرب ليست كالحروب الماضية . فكل من يحتل مقاطعـة ما يفرض عليها ايضاً نظامه الاجتماعي الخاص بـه . وهـذا لا يمكن الا ان يكون كذلك » .

وأشار ايضاً ، دون ان يخوض في ايضاح طويل ، الى معنى السياسة السلافية الشاملة ، فقـــال : « اذا بقي السلافيون موحدين ، واحتفظوا بثباتهم ، فأن أحداً في المستقبل لن يستطيع ان يحرك اصبعاً ــ حتى اصبعاً واحداً .» وقد كرر ذلك زيادة في التأكيد ، وهو يلوح بسبابته في الهواء .

وأعرب أحدهم عن شكه في ان يعود الألمان الى قوتهم خلال الخمسين سنة المقبلة . الا ان ستالين لم يوافق على هذا الرأي ، وقال : « لا ، انهم سيعودون الى القوة بسرعة كبيرة . ان ألمانيا دولة صناعية متطورة كثيراً ، وفيها مهارة فنية بالغة . اعطهم من عشر الى خمس عشرة سنة ، وسيقفون على اقدامهم مرة اخرى . ولهذا أرى ان وحدة السلافيين ضرورية . ولكن، بصرف النظر عن ذلك ، اذا وجدت الوحدة السلافية حقـاً ، فلن يجروء أحد على تحريك اصبعه » .

ثم انتصب واقفاً بعد لحظات ، وشد حزام بنطاله وكأنه كان يريـــد ان يخوض حلبة مصارعة ، ثم صرخ : « ان الحرب ستنتهي قريباً . وسوف نستعيد ازدهارنا خلال خمس عشرة او عشرين سنة ، وعندئذ سيكون لكل حادث حديث .»

كان في كلماته ما يخيف : اذ كانت تلك الحرب الضروس لا تزال دائرة .

لقد كانت معرفته للطرق التي توجب عليه ان يسلكها يثير العجب والتقدير ؛ وكذلك ادراكه الحتمية التي كان يواجهها العالم الذي عاش فيه والحركة التي قادها .

أما بقية ما قيل في تلك الليلة ، فلم يكن يستحق الذكر . لقد أكلنا كثيراً وشربنا أكثر ، ورفعت الكؤوس مرات عديدة لشرب انخاب لا معنى لها . من ذلك ان مولوتوف روى كيف غمز ستالين من قناة تشرتشل عندما رفع كأسه ليشرب نخب العملاء السريين والجهاز السري، وبذلك اراد التنويه بفشل تشرشل في غاليبولي خلال الحرب العالمية الاولى ، وذلك لافتقار البريطانيين الى المعلومات الكافية . وقد روى مولوتوف ايضاً مثلا على روح النكتة البائخة عند تشرتشل فقال : لقد أعلن تشرتشل ، في موسكو ، انه يستحق احترام الجيش الأحمر وتقديره لأنه علمه كيف يحارب جيداً ، وذلك بفضل تدخل الانكليز في معركة « آرشأنجل » . وهكذا يمكن القول ان تشرشل قد ترك انطباعاً عند الزعماء السوفيات كرجل سياسة « بورجوازي » خطر وبعيد النظر . ثم انهم لم يحبوه .

وفي طريق عودة تيتو الى الفيللا التي خصصت له ، قال : « انني ، والله لا أعلم لماذا يشرب هؤلاء الناس بهذا المقدار ــ انه دليل الانحطاط والانهيار ! » وقد وافقته على ذلك ، بالطبع ، وحاولت عبثاً ان اوضح السبب الذي يدفع الطبقة السوفياتية الحاكمة الى الشرب بهذه الطريقة المتعمدة اليائسة .

وفيما انا عائد الى المدينة من الفيللا التي كان ينزل فيها تيتو ، رحت استجمع انطباعاتي عن تلك الليلة التي لم يحدث فيها ، بالفعل ، ما هو ذو معنى عميق : لم يكن هنالك نقاط اختلاف ، ومع ذلك فقد شعر واحدنا انه كان بعيداً عن الآخر ، اكثر من اي وقت مضى .

كنا نحل منازعاتنا لاسباب سياسية ، كأمر لا يمكن تجنبه بسهولة بين الدول المستقلة .

وفي نهاية زيارتنا لموسكو ، وذلك في اعقاب عشائنا مع ستالين ، امضينا احدى السهرات عند ديميتروف . ولكي يملأ الفراغ في الحفلة بشيء ما ، دعا اثنين او ثلاثة من الممثلين السوفيات لكي يؤدوا بعض الاستعراضات القصيرة .

بالطبع ، جرى الحديث حول اتحاد بلغاريا ويوغوسلافيا في المستقبل ، لكنه كان حديثاً مختصراً وعاماً . وقد استعاد تيتو وديميتروف ذكرياتهما في الكومنترن . وهكذا كانت الحفلة ، بصورة اجمالية ، ودية اكثر منها اجتماعاً سياسياً .

كان ديميتروف وحيداً آنذاك ، لأن جميع المهاجرين كانوا قد عادوا الى بلغاريا — في اعقاب الجيش الأحمر . وبدت ملامح التعب والارهاق بوضوح على وجه ديميتروف . وكنا نعرف ، على الاقل ، بعض اسباب ذلك ، بالرغم من ان شيئاً بهذا الصدد لم يذكر مطلقاً . لقد منع ستالين ديميتروف من العودة الى بلغاريا ، بالرغم من تحريرها ، بحجة ان الوقت المناسب لم يحن بعد . فقد تعتبر الدول الغربية عودته دليلا واضحاً على محاولة اقامة نظام شيوعي في بلغاريا — كأن مثل هذا الدليل لم يكن واضحاً بدون عودته . ولقد جرى حديث حول هذا الموضوع ، في مأدبة ستالين ، عندما قال : « لم يحن الوقت بعد لعودة ديميتروف الى بلغاريا . خير له ان يبقى حيث هو الآن . »

وبالرغم من انعدام اي دليل ، فقد كان الشك يخامر الكثيرين بأن ستالين يرجىء عودة ديميتروف الى ان يكون هو نفسه قد سوّى

جميع القضايا في بلغاريا . ومما زاد في شكوكنا قول ستالين ان ديميتروف قد يدفع ببلغاريا نحو اليسار بسرعة وتهور .

كان هذا ، على الاقل ، كافياً وذا مغزى — كبداية . وقد اثارت هذه القضية سلسلة من الاسئلة . نعم ، كان ستالين عبقرياً ، أما ديميتروف فلم يكن شيئاً . ولكن من يدعي ان ستالين يعرف اكثر من ديميتروف ماذا يجب ان يُفعل في بلغاريا ؟ أليس ابقاء ديميتروف في موسكو ضد ارادته من شأنه ان يحط من قدره في نظر الشيوعيين والشعب البلغاري ؟

ومهما يكن من أمر ، فلماذا هذه اللعبة المعقدة حول عودة ديميتروف ، ولم يكن الروس مسؤولين عنها امام اي انسان ، حتى ديميتروف نفسه ؟

في السياسة اكثر مما في سواها ، تكمن بداية كل شيء في الشعور العميق بالاستياء ، وفي الشك بنوايا الاخرين الطيبة .

— ٦ —

عدنا عن طريق كييف . ونزولا عند رغبتنا ورغبة الحكومة السوفياتية ، بقينا هناك ثلاثة ايام ، لكي نقوم بزيارة للحكومة الاوكرانية .

وكان خروتشيف سكرتير الحزب في اوكرانيا ورئيس وزرائها . وكان مانويلسكي مفوض الشؤون الخارجية في حكومته . وقد كان كلاهما في استقبالنا ، ومعهما امضينا الايام الثلاثة .

وفي ذلك الوقت ، عام ١٩٤٥ ، كانت الحرب ما تزال دائرة ، ولذلك لم يكن يسمح للانسان الا بالاعراب عن رغبات متواضعة .

وقد اعرب خروتشيف ومانويلسكي عن واحدة من هذه الرغبات ، وهي ان تنشىء اوكرانيا علاقات ديبلوماسية مع « الديمقراطيات الشعبية » .

الا ان هذه الرغبة لم تتحقق . فقد واجه ستالين المقاومة حتى في « الديمقراطيات الشعبية » ، مما جعل من العسير عليه ان يفكر بتعزيز انفصال اوكرانيا . اما بصدد الشيوعي الديناميكي القديم مانويلسكي – الوزير بلا وزارة – فقد أوفد الى الامم المتحدة فيما بعد حيث ظل يلقي الخطب لمدة سنتين او ثلاث ، لكي يختفي ذات يوم ويضيع مع من ضاعوا من ضحايا ستالين او سواه .

أما خروتشيف فقد كان مصيره غير ذلك تماماً . الا ان احداً في ذلك الوقت لم يكن يستطيع ان يتنبأ بذلك ، على الرغم من انه ، حتى في ذلك الحين ، كان يعتبر في قمة الزعامة السياسية – وقد كان فعلا كذلك منذ عام ١٩٣٩ – مع انه لم يكن مقرباً من ستالين بقدر ما كان مالنكوف ومولوتوف ، او حتى كاغانوفيتش .

وكان الزعماء السوفيات الكبار ينظرون اليه كرجل بارع ، عظيم المقدرة في شؤون الاقتصاد والتنظيم . وقد ارتقى سدة الزعامة في اوكرانيا بعد حركة التطهير التي جرت في منتصف العقد الثالث من هذا القرن . الا انني لا اعرف شيئاً عن دوره في حركة التطهير هذه ، ولم يكن يهمني ان اعرف . غير انه من المعروف كيف كان يرتقي المرء في روسيا في عهد ستالين .

لقد حقق خروتشيف نجاحاً كبيراً وهو لم يزل شاباً . ولكن ليس في هذا ما يدهش ، بالنظر الى الأوضاع السوفياتية . لقد شق طريقه في عهد الدراسة ، والعمل السياسي ، كعامل ، وتسلق سلم الحزب لاخلاصه وذكائه وتأهبه الدائم . وكان ، كمعظم الزعماء ، ينتمي الى الجيل الحزبي الذي

تلى الثورة . وحين وقعت الحرب ، وجدته في أعلى منصب في اوكرانيا . واذ اضطر الجيش الأحمر الى الانسحاب من اوكرانيا قبل مجيء الألمان ، أعطي مركز عالٍ فيه ، برتبة جنرال من الدرجة الثانية . وبعد طرد الألمان ، عاد كرئيس للحزب والحكومة في كييف .

وشاع ان خروتشيف لم يكن اوكرانياً بالولادة ، بل روسي . وبالرغم من ان شيئاً ما لم يقل حول هذه المسألة ، فقد تجنب ، هو نفسه، الاتيان على ذكرها . وليس ذلك إلا لأنه من المحرج ان لا يكون رئيس وزراء اوكرانيا مواطناً اصلياً ! وهو امر كان ، والحق يقال ، غريباً حتى علينا ، نحن الشيوعيين ، الذين كنا قادرين على تبرير كل ما قد يشوه الصورة المثالية عن انفسنا . كيف تعجز بلاد ما كاوكرانيا ، التي يزيد عدد سكانها عن عدد سكان فرنسا ، والتي تعتبر أرقى من روسيا ثقافياً، عن ايجاد من هو مؤهل لأن يرئس حكومتها ؟

ثم انه لم يكن بالامكان ان يخفى عنا ان الاوكرانيين قد هربوا من الجيش الأحمر جماعات جماعات عندما تقدم الألمان في أراضيهم . وبعد طرد الألمان ، جرى ادخال مليوني اوكراني ونصف في الجيش الأحمر . واذ كانت حركة التطهير ما تزال قائمة ضد القوميين الاوكرانين ، فقد عجزنا عن ان نصدق ان السبب الوحيد للحركة القومية هو عناد الدعاة اليها . افليس جديراً بنا ان نتساءل : من أين جاءت هذه النزعة القومية اذا كان الشعب السوفياتي ، بالفعل ، متساوياً .

وكم ادهشنا تعميم الروسية في الحياة العامة في اوكرانيا . فقد كانت الروسية لغة المسرح ، بل كانت هناك صحف يومية باللغة الروسية .

على اننا لم ننو قط ان ننحي باللائمة على مضيفنا ن. س. خروتشيف بسبب هذا التعميم او بسبب اي شيء آخر . فهو كشيوعي ، لا يستطيع

ان يفعل شيئاً سوى تنفيذ أوامر الحزب ، واللجنة المركزية اللينينيــة ، وزعيمه ومعلمــه ج . ف . ستالين . فقد تميز جميع الزعمـاء الشيوعيين بواقعيتهم ، وفي الدوائر الشيوعية ، بالصراحـة والانضبـاط . وقــد بزّ ن. س. خروتشيف زملاءه في هـذه الميزة . على انه ، لا في ذلك الحين ولا اليوم ـ بعد دراسة خطبه وبياناته بدقة ـ قد ترك في نفسي الانطباع عن ان معرفته تتجاوز حدود الأدب الروسي الكلاسيكي والتاريخ الروسي ، أو ان المامه بالنظرية الحزبية يتعدى مستوى ما يدرّس في المدارس الحزبية المتوسطة . والى جانب هذه المعرفة الخارجية المدرسية كانت هنالك المعرفة الأهم ، وهي تلك التي حصل عليها بالكد والجهد ، وبالخبرة في الأعمال المختلفة التي قام بها . وانه لمن المستحيل تقدير مقدار تلك المعرفة وأهميتها . فقد كان من المدهش ان يكون عارفاً بحقيقة ما نادرة ، وان يكون ، في الوقت نفسه ، جاهلاً بعض الحقائق الابتدائية . لقد كانت ذاكرته قوية ، واعرابه عن تفكيره حيوياً ، دقيقاً .

وكان خروتشيف ، بخلاف الزعماء السوفيات الآخرين ، يـترك نفسه على سجيتها ، مع انه كان مثلهم يستعمل الأمثال العامية السائرة . وقــد كانت هذه الصفة زيا درجوا عليه ودليلاً على علاقتهم الحميمة بالشعب . على ان ذلك كان ، عنــد خروتشيف ، أقل اصطناعــاً ، بالنظر الى سلوكه الطبيعي وبساطتــه في الكلام . وكان كذلك يتحلى بروح النكتـة ، وهي بخلاف تلك التي تحلى بها ستالين ، من حيث العمق والسخرية . كان يرسل النكتة بشيء من العفوية والسذاجة ، مما جعلها أكثر حيوية ونبضاً . والآن ، وقد بلغ أعلى مراتب السلطان في الاتحاد السوفياتي ، فانـه يحاول الاعتناء بمظهره وتصرفاته العلنية . غير انه ، في الاساس ، لم يتغير ابداً . فقد ظل واحداً من الشعب . وهو لا يشكو ، مثل الزعمـاء الشيوعيين ،

من الشعور بالنقص وضعف الثقافة ـ اي انه لا يشعر بحاجة إلى إخفاء جهله الشخصي وضعفاته وراء المظاهر البراقة واطلاق الكلام على عواهنه.

ان الابتذال الذي تتصف به احاديثه ليس سوى دليل على الجهل المطبق من جهة ، والالمام السطحي بالمبادىء الماركسية ، من جهة أخرى. على انه يعرضها ويعرب عنها باقتناع وصراحة . ثم ان اللغة التي يستعملها والاسلوب الذي يعرب به عن افكاره ، يشملان دائرة اوسع مما كان ستالين يخاطبها ، بالرغم من انه ، هو ايضاً ، كان يخاطب الجمهور ذاته ـ اي الحزب ، ومن ورائه الناس جميعاً .

لقد كان خروتشيف ، بثيابه العسكرية ، الزعيم السوفياتي الوحيد الذي كان همه الغوص في التفاصيل ، والاطلاع الدقيق على الحياة اليومية الخاصة بالشيوعيين وبالمواطنين ايضاً . وليكن مفهوماً : انه لم يهدف من وراء ذلك الى تغيير الاوضاع الراهنة ، بل الى تعزيزها وتحسينها . كان ينظر في الأمور ويحاول علاجها ، فيما انصرف الزعماء الآخرون الى اصدار الاوامر من وراء مكاتبهم ، وتسلّم التقارير .

ان احداً من الزعماء السوفيات لم يذهب الى المزارع الجماعية ، ما عدا بعض الذين ذهبوا لحضور مهرجان ما او استعراض . لقد رافقنا خروتشيف الى مزرعة جماعية . ولم يكن في أي زاوية من تفكيره ادنى شك بصلاح النظام نفسه . وهناك لم يشرب انخاب المزارعين وحسب ، بل تفحص الحدائق ، ودخل الى حظيرة الخنازير ، واخذ يبحث في المشاكل الواقعية . وفي طريق عودتنا الى كييف استمر في الحديث عن المزارع الجماعية ، وعن النواقص التي تشكو منه .

ثم اننا استطعنا ان نلاحظ واقعيته الممتازة ، في اجتماع للاجهزة الاقتصادية في حكومة اوكرانيا . كان الوزراء العاملون معه ، على عكس

الوزراء اليوغوسلاف ، يعرفون كل شيء عن القضـــايا المتعلقة بهم ، ويسعون دائماً لسبر غور جميع الامكانات بطريقة عملية .

وبالرغم من كونه قصير القامة ، ضخم الجثة ، فقد كان نشيطاً ، كثير الحيوية . وكان يلتهم كميات كبيرة من الطعام . وفي حين كان ستالين وجماعته يتركون في النفس انطباعاً عن شراهتهم ، كان خروتشيف يهتم فقط بملء امعائه ، كأي عامل نشيط آخر .

كان يتمتع بحيوية بالغة . وكان كجميع الرجال الواقعيين ، يلبس ، بسرعة ، لكل حالة لبوسها . ولا اظن انـه كان يزعج نفسه كثيراً في اختيار الوسائل ، ما دامت تعطيه نتائج واقعية .

غير انه ، كجميع الغوغائيين الشعبيين الذين غالباً ما يصدقون مـــا يقولونه ، كان من السهل عليه ان يتخلى عن الوسائل غير الواقعيـة ، وان يبرر هذا التخلي باللجوء الى الاسباب الاخلاقيـــة والمثالية العليا . ولطالما احب ترديد هذا المثل : « في القتال ، لا يتوقف المرء لاختيار العصي . »

ان ما قلته هنا عن خروتشيف ليس على الاطلاق ما يجب قوله عنه اليوم . انها مجرد انطباعاتي عنه في وقت مضى .

انني ، آنذاك ، لم استطع ان الاحظ في خروتشيف ما يستدل منه على عدم رضاه عن ستالين او مولوتوف . فعندما كان يتحدث عن ستالين ، كان يفعل ذلك باحترام ويؤكد علاقته الوثيقـــة به . وقد اخبرنا كيف تكلم اليــه ستالين بالتلفون من موسكو عشية الهجوم الالماني ، لينذره بوجوب التأهب ، لأن الالمـــان قد يبدأون هجومهم في اليوم التالي ـــ ٢٢ حزيران . انني اذكر هـــذا كحقيقة ، لا قصداً مني الى تكذيب دعوى خروتشيف ضد ستالين ، وهي ان الهجوم الالماني قد وقع على حين

غرة . وهو بذلك يريد ان يبرهن على قصور ستالين في التقدير السياسي .

ومهما يكن من أمر ، فقـــد كان المرء في كييف يشعر بشيء من الجدة ، وذلك بفضل حيوية خروتشيف وواقعيته ، وحماس مانويلسكي ، وجمال المدينة نفسها ، التي كانت بآفاقها الخلابة وتلالها المطلـــة على نهر طيني ، تشبه بلغراد الى حد كبير .

وبالرغم من ان خروتشيف كان يترك في النفس انطباعاً عن قوته ، وثقته بنفسه ، وواقعيته ، وبالرغم من جمال كييف وروعتها ، فقـــد بقيت اوكرانيا تذكرني بضياع الشخصية ، والتعب ، واليأس .

وكانت شكوكي تتضاعف ، كلما تعمقت في الواقع السوفياتي . كان التوفيق بين ذلك الواقـــع وبين ضميري انا ، الانساني ، يستحيل اكثر فـــأكثر .

خیبات امل

كان لقائي الثالث مع ستالين ، في اوائل سنة ١٩٤٨ ، اهم لقاء . ذلك لانه جرى عشية الخلاف الذي وقع بين القـادة السوفيات واليوغسلاف . وكانت قد سبقته احداث وتغييرات في العلاقات السوفياتية الروسية .

كانت العلاقات بين الاتحاد السوفياتي والغرب قد اتخذت شكل حرب باردة بين الكتلتين . اما الاحداث التي ادت الى ذلك فكانت ، في رأيي ، رفض السوفيات لمشروع مارشال ، والحرب الاهليـة في اليونان ، وانشاء بعض الاحزاب الشيوعية لمكتب المعلومات المعروف بالكومنفورم . وقـد كانت يوغوسلافيا والاتحاد السوفيـاتي الدولتين الشرقيتين الوحيدتين اللتين وقفتا ضد المشروع ، الاولى لأنه خروج على العقيدة الثورية ، والثـانية لأنه ، في نظرها ، قد يؤدي الى زعزعة الامبراطورية التي حصلت عليها عسكرياً .

وكمندوب عن يوغوسلافيـا الى مؤتمر الحزب الشيوعي الفرنسي في ستراسبورغ ، وجدت نفسي في باريس في نفس الوقت الذي كان فيـه مولوتوف يجري محادثات مع ممثلي الدول الغربيـة عن مشروع مارشال . وقد استقبلني مولوتوف في السفارة السوفياتية ، حيث اتفقنا على مقاطعة

مشروع مارشال وانتقاد الحزب الفرنسي على اتبـاع ما دعاه بـ « الخط الوطني » . وقد اهتم مولوتوف ، خاصة ، بانطباعاتي عن المؤتمر ، وابدى ملاحظات عن مجلة « الديمقراطية الحديثـة » التي كان هدفها التعبير عن وجهات النظر المتحدة للاحزاب الشيوعية . وفي ذلك قال : « لسنا بحاجة الى هذا ، وليس هذا ما يجب عمله ! »

اما بصدد مشروع مارشال ، فقد تساءل مولوتوف اذا كان يجب توجيه الدعوة الى عقد مؤتمر تشترك فيه الدول الشرقية ايضاً ، لاسباب دعائية محض ، هدفه فقط استغلال الدعاية التي ستعم حوله ، ثم الانسحاب من المؤتمر في الوقت المناسب . ولم اتحمس لهذه الفكرة ، مع انني لم اكن لاعارضها لو اصرّ الروس عليهـا . غير ان مولوتوف تلقى تعليمات من المكتب السياسي في موسكو بان لا يوافق حتى على هذا .

وفور عودتي الى بلغراد ، علمت انـه سيعقد مؤتمر في موسكو لدول اوروبا الشرقية ، لاتخاذ موقف من مشروع مارشال ، وانني قـد عينت مندوباً عن يوغوسلافيا . وقـد كان الهدف الحقيقي للمؤتمر هو الضغط الجماعي على تشيكوسلوفاكيا التي لم تكن حكومتها ضد فكرة الاشتراك في مشروع مارشال . وقـد كانت طائرة سوفياتية تنتظرني في مطار بلغراد ، ولكنني لم اطر في اليوم التالي ، لان برقية وصلت من موسكو تقول انه لم تعد هنـاك حاجة الى مثل هـذا المؤتمر بعـد ان تخلت حكومـة تشيكوسلوفاكيا عن موقفها السابق .

وقد بدا هذا الانسجام التـام مع سياسة الاتحاد السوفياتي ، في انشاء الكومنفورم ، وان يكن لاسباب غير التي تذرع بها الاتحاد السوفياتي . ان فكرة انشاء نوع من الوكالة لتسهيل الانسجام وتبادل وجهات النظر بين

الاحزاب الشيوعية ، كانت قد بحثت في مطلع عام ١٩٤٦ . ثم ناقشها ستالين وتيتو وديميتروف في ربيع تلك السنة . على ان تحقيقها قد ارجيء لاسباب عديدة ، معظمها كان متوقفاً على تقدير الاتحاد السوفياتي للوقت المناسب لتحقيقها . وقد جاء هذا الوقت المناسب عام ١٩٤٧ ، حين رفض الاتحاد السوفياتي مشروع مارشال وقرر ترسيخ السيطرة السوفياتية في اوروبا الشرقية .

وفي الاجتماع التأسيسي للكومنفورم ، الذي جرى في غربي بولونيا ـ اي في المقاطعة التي كانت جزءاً من الاراضي الالمانية ـ انفردت يوغوسلافيا والاتحاد السوفياتي في تأييد انشاء هذا الجهاز . وقد عارضه غومولكا ، مندوب بولونيا ، بدعوى تمسّك بلاده بطريقتها الخاصة في تحقيق الاشتراكية .

ولهذه المناسبة قد يجدر بي ان اذكر ان ستالين هو الذي اقترح اسم الصحيفة التي كان سيصدرها الكومنفورم ، وهو « من أجل سلام دائم ـ من أجل ديمقراطية شعبية . » وكان هدف ستالين من وراء هذا الاسم هو ان تضطرّ الصحافة الغربية لترديد هذا الشعار كلما أشارت الى الصحيفة او اقتبست عنها شيئاً . الا ان هذا الهدف لم يتحقق لأن رائحة الدعاية التي فاحت من هذا الاسم جعلت الصحافة الغربية تكتفي بالاشارة الى الصحيفة كلسان حال الكومنفورم . وقد كان ستالين ايضاً هو الذي اقترح اين يجب ان يكون مركز المنظمة . وقد كانت الوفود قد اقترحت براغ ، فأسرع مندوب تشيكوسلوفاكيا ، « سلانكي » ، الى براغ ليستشير غوتوالد في هذا الموضوع ، ولكن زدانوف ومالنكوف تحدثا مع ستالين تلفونياً عن التردد الذي أبداه غوتوالد بقبول الاقتراح . عندئذ أمر ستالين بان يكون مركز المنظمة في بلغراد .

هـذه الازدواجية في المعاملة كانت تطبق في العلاقات السوفياتية اليوغوسلافية : في الظاهر ، اتفاق سياسي وعقائدي تام ، أما في الباطن فخلاف في الاراء ووسائل التنفيذ .

وعندما ذهب وفد يضم زعماء يوغوسلافيا – تيتو ، ورانكوفيتش ، وكيدريتش ، وناشكوفيتش – الى موسكوا في ربيع ١٩٤٦ ، كانت العلاقات بين زعماء الوفدين السوفياتي واليوغوسلافي ودية في الظاهر . فقد عانق ستالين تيتو ، مشيراً الى الدور العظيم الذي لعبه في اوروبا ، ومقللاً من اهمية الدور الذي لعبه ديميتروف والبلغار . ولكن هذا الود لم يدم ، اذ سرعان ما ذر قرن الخلاف .

وقد ظلّ الخلاف الخفي مستمراً ، فلم يبصره العالم اللاشيوعي ، ولكنه كان ظاهراً في الاجتماعات السرية الحزبية حول اختيار رجال المباحث السوفياتية ، وهو أمر لم يأخذ بعين الاعتبار الدولة وجهاز الحزب . وكان الخلاف يظهر جلياً ايضاً في الناحية العقائدية ، وخصوصاً في تنديد السوفيات بالثورة اليوغوسلافية . فكان مندوبو الاتحاد السوفياتي يتحملون بامتعاض اعتبار اليوغوسلاف لتيتو في المنزلة التالية لستالين ، كما كانوا يمقتون ، بنوع خاص ، استقلال يوغوسلافيا في التعامل مع بقية البلدان الأوروبية الشرقية ، ونمو مكانتها بينها .

ثم لم يلبث الخلاف ان امتد الى العلاقات الاقتصادية ، لا سيما عندما اتضح لليوغوسلاف انهم ، ما عدا الروابط التجارية العادية ، لا يمكنهم الاعتماد على المساعدة السوفياتية ، لمواصلة تنفيذ مشروع السنوات الخمس . واذ أحسّ ستالين بالمقاومة ، ألحّ على ان استخدام الشركات المتحدة الاسهم لا يصح بين دول صديقة وحليفة ، ووعد بأن يقدم كل مساعدة

ممكنة . غير ان تجاره ، في الوقت نفسه ، استغلوا الفرص التجارية التي سنحت لهم من جراء توتر العلاقات اليوغوسلافية ـ الغربية ، ووجهة نظر يوغوسلافيا الوهمية عن الاتحاد السوفياتي كدولة غير أنانية وغير طامحة الى النفوذ والسلطان .

لقد كانت يوغوسلافيا ، باستثناء البانيا ، أول دولة من دول اوروبا الشرقية ، حررت نفسها من الغزو النازي وأخذت تحقق ثورتها الداخلية دون مساعدة فعالة من الجيش الأحمر . وقد تقدمت شوطاً بعيداً في تطورها الاشتراكي ، مع انها كانت في مركز جغرافي دقيق لا تجاريها فيه اي من البلدان الأوروبية الشرقية .

كانت الحرب الأهلية قائمة في اليونان . وقد اتهمت يوغوسلافيا في الامم المتحدة بأنها قدمت مساعدة مادية لهذه الثورة ، وانها هي التي أوحت بها . وهكذا توترت العلاقات اليوغوسلافية مع الغرب ، وخصوصاً مع الولايات المتحدة الأميركية .

وحين أعود بالذاكرة الى الماضي ، يتضح لي ان الحكومة السوفياتية لم تنظر بعين الرضى الى هذا التوتر فحسب ، بل انها عمدت الى اثارته وتعزيزه ، حريصة ، بالطبع ، على ان لا تتجاوز حدود مصالحها وامكانياتها. وقد عانق مولوتوف كاردلج في باريس حين أُسقطت طائرتان أميركيتان في يوغوسلافيا ، ولكنه حذره من عواقب اسقاط طائرة ثالثة . ولم تتدخل الحكومة السوفياتية مباشرة في الثورة اليونانية ، بل تركت يوغوسلافيا تواجه وحدها الاتهامات في الامم المتحدة ؛ كما انها لم تفعل شيئاً لعقد هدنة ـ الا عندما وجد ستالين ان هذه الهدنة كانت في صالحه .

ثم ان تعيين بلغراد مركزاً للكومنفورم ، قد كان في الظاهر اعترافاً بالثورة اليوغوسلافية . إلا ان الهدف الحقيقي الذي رمى اليه الاتحاد

السوفياتي من وراء ذلك ، كان تخدير الزعماء اليوغوسلاف بشعور الرضى عن انفسهم ، واخضاع يوغوسلافيا للتضامن الشيوعي المفترض – ولكن اخضاعها في الواقع للسيطرة السوفياتية ، او بالأحرى ، لمطالب البيروقراطية السوفياتية السياسية .

لقد حان ان يقال شيء عن موقف ستالين من الثورات ، وموقفه من الثورة اليوغوسلافية بالذات . فبالنظر الى ان موسكو قد امتنعت في اللحظات الحاسمة عن دعم الثورة الصينية ، والاسبانية ، والى حد ما الثورة اليوغوسلافية ، فقد ساد الرأي ان ستالين كان ، على وجه عام ، ضدّ الثورات . غير ان ذلك ليس صحيحاً كل الصحة . لقد كان ستالين يعارض الثورة بشرط ، وهي ان لا تتجاوز حداً يوقع الضرر بمصالح الدولة السوفياتية . فقد كان يشعر ان اقامة مراكز ثورية خارج موسكو ، قد يهدد تفوقها في العالم الشيوعي . وهذا ما حدث فعلاً . وهذا ما دفعه الى مساعدة الثورات الى حيث امكنه السيطرة عليها . ولكنه كان دائماً مستعداً ان يدعها « تسقط » عندما تفلت من بين يديه . واؤكد انه ، حتى يومنا هذا ، ليس هنالك اي تغيير اساسي في سياسة الحكومة السوفياتية فيما يتعلق بهذا الموضوع .

ان ستالين الذي اخضع كل نشاط في بلاده لوجهات نظره وشخصيته ، لم يكن بوسعه ان يتصرف خلاف ذلك خارج بلاده . لقد قرن التقدم الوطني والحرية بمصالح الحزب السياسية ، ولم يكن بوسعه ان يتصرّف ، في الشؤون الخارجية ، الا كرجل محب للسيطرة . لقد اصبح عبداً لطغيانه وللعبودية التي فرضها على بلاده . وانه لصحيح ، حقاً ، القول بان الانسان لا يستطيع ان يسلب حرية الآخر ، دون ان يفقد حريته هو .

كان سفري الى موسكو ، لمناسبة الخلاف بين السياسة اليوغوسلافية والسياسة الروسية تجاه البانيا . ففي اواخر شهر ديسمبر ١٩٤٧ ، وردت من موسكو رسالة مستعجلة يطلب فيهـا ستالين من احد افراد اللجنة المركزية اليوغوسلافية ـ وقد ذكرني بالاسم فقط ـ ان يذهب الى موسكو لإعادة الانسجام بين سياسة الحكومتين السوفياتيـة واليوغوسلافيـة بصدد البانيا . وكان عدم هذا الانسجام قد ظهر في مناسبات عديدة ، خصوصاً بعد انتحار ناكو سبيرو ، عضو اللجنة المركزية الالبانية .

كانت العرى بين يوغسلافيا والبانيا وثيقة في جميع الحقول . وقـد ارسلت يوغوسلافيا الى البانيا عدداً من الخبراء ، كما ارسلت اليها المواد الغذائية ، بالرغم من ان يوغوسلافيا كانت هي ايضاً تعاني نقصاً في هذه المواد . وكان قد بديء بانشاء شركات متحدة الاسهم . وقـد وافقت الحكومتان مبدئياً على ان البانيا يجب ان تنضم الى يوغوسلافيا ، ذلك ان هذا لما يساعد على حل مشكلة الاقلية الالبانية في يوغوسلافيا .

اما الشروط التي عرضتها الحكومة اليوغوسلافية على الالبـان ، فقد كانت افضل لهم بكثير من الشروط التي عرضها الاتحاد السوفياتي على اليوغوسلاف . ولكن المشكلة ، على ما يبدو ، لم تكن في درجة الانصاف ، بل في نوع هذه العلاقات . فقد كان بعض الزعماء الالبان ضدّ هـذا التقـارب .

كان ناكو سبيرو آنذاك يـدير الشؤون الاقتصادية في الحكومـة الالبانية . كان رجلاً نحيلاً ، شديد الحساسية ، مرهف التفكير . وهو اول من ثار ضـد الارتباط مع يوغوسلافيا ، داعياً البانيا الى تطوير

نفسها باستقلال عنها . وقد نجم عن موقفه هذا رد فعل حاد ، ليس فقط في يوغوسلافيا ، بل في داخل اللجنة المركزية الالبانية . فعارضه في ذلك كوشي شوشي ، وزير الداخلية الالبانية ، واليوغوسلافي الميول . وقد اشتهر عن هذا الرجل انه كان اكثر رجال الحزب ثباتا في مركزه ، بالرغم من ان انور خوجا – وهو ولا شك اكثر منه ثقافة واقوى شخصية – كان السكرتير الاول للحزب ورئيساً للحكومة . وقد انضم انور خوجا الى منتقدي سبيرو ، مع ان موقفه الحقيقي كان غامضاً . واذ وجد سبيرو المسكين نفسه وحيداً ، ومتهماً بالشوفينية ، ومهدداً بالطرد من الحزب ، عمد الى الانتحار . وبموته حدث ما لم يكن في الحسبان . فقد تدهورت العلاقات اليوغوسلافية الالبانية تدهوراً سيئاً .

اما الاسباب الحقيقية لانتحار سبيرو ، فقد اخفيت عن الرأي العام . وبعد انقطاع الصلات الودية بين البانيا ويوغوسلافيا ، عام ١٩٤٨ ، اقام انور خوجا نصباً تذكارياً لسبيرو ، باعتباره بطلا قومياً . غير ان حادثة انتحاره تركت اثراً سيئاً في الاوساط الحاكمة في البلدين ، لم يكن ليزيله الالحاح على جبانة سبيرو ، وروحه البورجوازية الحقيرة ، وما الى ذلك من الشعارات التي تعمر بها جعبة الشيوعيين .

اما الحكومة السوفياتية فقد اعلمت بالاسباب الحقيقية لانتحار سبيرو ، وبالنشاط اليوغوسلافي في البانيا . فقد كانت بعثتها في تيرانا ، عاصمة البانيا ، تتضخم يوماً بعد يوم . اضف الى ذلك ان العلاقات بين الحكومات الثلاث – السوفياتية ، والالبانيـة ، واليوغوسلافية – كانت على نحوٍ لا يسمح للأخيرتين باخفـاء علاقاتهما عن الأولى ، مع انه لا بد من القول ان الحكومة اليوغوسلافية لم تكن تستشير السوفيات في التفاصيل السياسية .

وكان السوفيـات يزدادون ، مـع الايام ، شكوى من الاجراءات

اليوغوسلافية في البانيا ، فيما كانت الجماعة المؤيدة لخوجا تتقرب ، اكثر فأكثر ، من البعثة السوفياتية . وكانت الشكاوى تنهض ، بين حين وآخر ، من هذا أو ذاك من المبعوثين السوفيات : لماذا انشأت يوغوسلافيا شركات متحدة الاسهم مع البانيا ، بينما رفضت انشاء مثلها مع الاتحاد السوفياتي ؟ لماذا توفد يوغوسلافيا خبراءها العسكريين لتدريب الجيش الالباني ، بينما تستخدم الخبراء العسكريين السوفيات لتدريب جيشها ؟ كيف كان في وسع يوغوسلافيا ان توفد خبراء للتنمية الاقتصادية الى البانيا ، بينما هي نفسها تستدعيهم من الخارج ؟ لماذا نوت يوغوسلافيا ، فجأة ، ان تعمد الى تطوير البانيا ، وهي نفسها بلاد فقيرة وبأمس الحاجة الى التطوير ؟

والى جانب الخلافات القائمة بين الحكومتين السوفياتية واليوغوسلافية ، كان ميل موسكو الى الحلول محل يوغوسلافيا في البانيا واضحاً جلياً . وقد بدا هذا مجحفاً بحق اليوغوسلاف ، لأن الاتحاد السوفياتي لم يكن هو الذي اقترح الاتحاد مع البانيا ، كما انه لم يكن متاخماً لها . وهكذا اصبح واضحاً ، يوماً بعد يوم ، ان الزعماء الالبان اخذوا يلتفتون نحو الاتحاد السوفياتي . وكان الدليل على ذلك يزداد بروزاً في حملاتهم الدعائية .

اما دعوة الحكومة السوفياتية لازالة الخلاف حول البانيا ، فقد استقبل بترحيب حار في بلغراد . على ان اسباب الحاح ستالين على أن أمثل انا بلادي ، كان وما يزال سراً الى اليوم .

ولكني اظن انه كان لستالين سببان : اولهما انني قدا كون حملته على الاعتقاد بأنني رجل صريح وصادق . وهو رأي كان سائداً بين الشيوعيين

اليوغوسلاف . وهكذا وجدني أصلح ما يكون لان يجري معي مباحثات حول قضية معقدة ودقيقة .

وثانيهما ان ستالين ، كما اعتقد ، قد نوى على ان يربحني الى جانبه ، املاً في شق اللجنة المركزية اليوغوسلافية واضعافها . كان قد ربح هيبرانغ وجويوفيتش . غير ان هيبرانغ قد طرد من اللجنة المركزية ووضع رهن التحقيق لسلوكه في السجن ، اثناء الحرب ، سلوكاً غريباً . اما جويوفيتش ، فقد كان شخصية بارزة ، ولكنه ، مع كونه عضواً في اللجنة المركزية ، لم يكن بين القلة المقربة الى تيتو ، لا في اثناء النضال في سبيل وحدة الحزب ، ولا عند قيام الثورة .

وكان تيتو ، حين اقامته في موسكو عام ١٩٤٦ ، قد اخبر ستالين بالصداع الذي كنت ضحية له ، فدعاني الى جزيرة القرم للاستجمام . ولكنني لم اذهب ، لأسباب اهمها ان الدعوة لم تصلني عبر السفارة ، ولذلك حسبتها مجرد بادرة طيبة ، قام بها ستالين ، عرضاً ، في الحديث عني .

وهكذا سرت في طريقي الى موسكو ــ في ٨ كانون الثاني (يناير) ، على ما اذكر ، أو حوالي هذا التاريخ ــ تحدوني الامال . وقد ارضى كبريائي ان ستالين قد دعاني ، انا شخصياً . ولكن مخاوف غامضة داخلتني : لم تكن هذه الدعوة صدفة واتفاقاً ، فلستالين نوايا نحو تيتو واللجنة المركزية لم تكن شريفة تماماً .

ولم اتلق اي تعليمات من بلغراد ، ولم يكن هنالك من حاجة الى تعليمات ، لانني كنت في عداد الصفوة من الزعماء ، ومطلعاً على العلاقات اليوغوسلافية ــ الالبانية . وكنا قد قررنا الاصرار على أن لا يكون الممثلون السوفيات عقبة في وجه السياسة المعلن عنها بصدد الاتحاد

السوفياتي ــ الالباني ، وذلك بتصرفاتهم الحمقاء أو باتخاذ خطاً سياسياً آخر .

وقد اغتنم الجيش اليوغوسلافي هذه الفرصة الرائعة ، فارفق بي وفداً هدفه طلب الحصول على اسلحة ، وعلى المعونة في تطوير صناعتها في يوغوسلافيا . وقد ضم هذا الوفد كوتشا بوبوفيتش ، رئيس اركان الحرب ، وميالكو تودوروفيتش ، مدير الصناعة الحربية . أما فوكمانوفيتش ــ تامبو ، مدير الدائرة السياسية في الجيش ، فقد رافقنا للاطلاع على خبرة الجيش الاحمر في هذا الموضوع .

وركبنا القطار الى موسكو ، ونحن في منتهى المرح ، والثقة ــ متمسكين بالرأي القائل إن على يوغوسلافيا ان تحل مشكلاتها بطريقتها الخاصة ، بالاعتماد على مواردها الخاصة ، الى حد كبير .

ـ ٣ ـ

هذا الرأي أعلن عنه في موعد سابق لأوانه ، وذلك في حفلة العشاء التي اقيمت على شرفنا في السفارة اليوغوسلافية في بخارست ، والتي حضرتها آنا بوكر ، وزيرة الخارجية الرومانية ، وبعض كبار المسؤولين الرومانيين .

لقد اجمع اليوغوسلاف الحاضرون ، ما عدا السفير غولوبوفيتش ، الذي نزح فيما بعد الى موسكو تحمساً منه في تأييدها ، على القول بان الاتحاد السوفياتي لا يمكن ان يكون نموذجاً كاملا في « بناء الاشتراكية » ، ذلك لأن الوضع قد تبدل ، والاحوال والظروف قد تغيرت في كل بلد من بلدان اوروبا الشرقية . وقد لاحظت ان آنا بوكر قد التزمت جانب الصمت . ولعلها وافقت بتردد على بعض ما قيل وارادت ان تتجنب

الخوض في مواضيع دقيقة كهذه . على ان أحد الرومانيين ـ لعله بودناراس ـ عارض آراءنا ، وآخر ـ وقد نسيت ، ويا للأسف ، اسمه ـ ايدها بمودة. وقد اعتبرت حديثاً كهذا الحديث نابياً محرجاً ، لأنني كنت على يقين بأن كل كلمة قيلت فيه ستصل الى مسامع الروس ولن يكون في وسعهم ان يفهموا إلا انها « معادية للسوفيات » ـ وهي تهمة مرادفة لشرور الأرض جميعاً . على انني ، في ذلك الحين ، لم استطع ان استرد الآراء التي اعربت عنها ، فعمدت الى الاعتدال ، مشدداً على مزايا الاتحاد السوفياتي وأهمية خبرته من الناحية النظرية . غير ان ذلك لم يكن ذا جدوى ، اذ انني ، أنا نفسي ، قد شدّدت على انه من واجب كل بلد ان يشق طريقه لنفسه ، وفق ظروفه وأحواله الخاصة به . وهكذا استحال ازالة الحرج والنبوّ اللذين احاطا بهذا الموضوع . وقد كنت على يقين بأن السوفيات لا يميلون الى الكلام المرهف الدقيق ، أو الى التسويات ، لا سيا في الصفوف الشيوعية .

ومع اننا لم نكن إلا عابرين في رومانيا ، فقد وجدنا سبباً للانتقاد في كل مكان . فهنالك ، أول الأمر ، العلاقات القائمة بين الاتحاد السوفياتي وبلدان اوروبا الشرقية . كانت ما تزال تحت الاحتلال الفعلي ، وثرواتها تُبتزّ منها بشتى الوسائل ، لا سيا عن طريق الشركات المتحدة الاسهم التي كاد الروس ان لا يسهموا بنصيبهم من تمويلها إلا بالرأسمال الألماني الذي اعلنوا ، ببساطة ، انه من غنائم الحرب . أما التجارة مع هذه البلدان ، فلم تكن تجري ، كما تجري عليه ، في بقية انحاء العالم . ذلك انها كانت تقوم على اسس اتفاقات خاصة تشتري بموجبها الحكومة السوفياتية بأخفض ، وتبيع بأعلى ، مما هي عليه الاسعار العالمية ، ولم تشذ عن ذلك إلا يوغوسلافيا . وقد عرفنا ذلك . ولم يكن مشهد البؤس ، أضف اليه

العجز والذل اللذين تردت فيهما السلطات الرومانية ، إلا ليزيد في استيائنا وقرفنا .

وكم فوجئنا بالموقف المتعجرف الذي كان يقفه ممثلو الاتحاد السوفياتي من الرومانيين . فقد نعت قائد الموقع السوفياتي في « اياشي » تلك البلدة بالقذارة ، والرومانيين بأكلة الشعير . نعم ، كانت « اياشي » ، خصوصاً في ذلك الشتاء ، بلدة موحشة ، غير ان جمالها لم يكن يتكشف إلا للعين البصيرة . وكنا نعلم ان القرى السوفياتية ليست أكثر نظافة ورقياً منها ، ان لم تكن اردأ . وقد كان هذا الموقف المتعالي الذي وقفه الممثلون السوفيات هناك ، هو الذي اثار استياءنا : اضف الى ذلك ان المعاملة الحسنة التي عاملونا بها قد زادت في تحقير الرومانيين من جهة ، بينما بعثت فينا شعور الفخر والاعتزاز باستقلالنا وحريتنا .

وقد قضينا بضع ساعات في « أياشي » بانتظار القطار السوفياتي الخاص الذي سيقلنا ، بمرافقة الكابتن كوزوفسكي ، وهو الرجل المختص بالعلاقات اليوغوسلافية في دائرة الأمن السوفياتية . ولم يسلم حتى القطار من تعليقاتنا الساخرة التي كان يستحقهـا بالرغم من انه كان مريحاً ، وفيه خدمة جيدة . لقد كانت اوكرانيا وروسيا ، المغمورتان بالثلوج ، ما تزالان تحملان آثار الخراب وفظائع الحرب ـ كالمحطات المنسوفة ، والثكنات ، ومشهد النساء اللواتي كن يقتتن بالخبز اليابس ويشربن الماء الساخن ، ويتدثرن بالاسمال . وهذه المرة ايضاً بدت كييف جميلة بنظافتها وثقافتها وذوقها ، بالرغم من انعزالها وفقرها . وقد ذكرني نهر الدنايبر ومناظر السهول هناك ببلغراد . وتوقفنا قليلاً في كييف ، دون ان يستقبلنا أحد من الرسميين الاوكرانيين . ولم يكن غير قطارنا وحده مشعاً ببريق الراحة والبحبوحة وسط الفقر والبؤس اللامتناهين .

بعد وصولنا الى موسكو بعدة ساعات ، قابلنا السفير اليوغوسلافي فلاديمير پوپوفيتش . وقد دار بيننا حديث ودي ، قرع في اثنائه جرس التلفون على طاولة السفير . كانت وزارة الخارجية السوفياتية تسأل اذا كنت متعباً أو ان باستطاعتي ان اقابل ستالين ذلك المساء . وقد دهشت كثيراً لهذه السرعة غير الاعتيادية في موسكو ، حيث اعتاد الشيوعيون الأجانب على الانتظار الطويل . حتى شاع القول المأثور : « انه من اليسير دخول موسكو ، ولكن من العسير الخروج منها » . والحق اني لو كنت منهوك القوى من الرحلة لسارعت الى قبول دعوة ستالين بطيبة خاطر . وقد نظر اليّ اعضاء الوفد بفخر ، ولكنه لم يخلُ من حسد .

كان فرحي بمقابلة ستالين هادئاً ، وان لم يكن صافياً . وما ذلك إلا للسرعة التي تمت بها هذه المقابلة . وهذا التشاؤم لم يفارقني طيلة الليلة التي قضيتها معه ومع بعض الزعماء السوفيات .

وكالعادة ، اخذوني في الساعة التاسعة ليلاً الى مكتب ستالين في الكرملين . ولم يكن ستالين وحده في مكتبه بل كان معه ايضاً مولوتوف وزدانوف . وكنت أعرف عن هذا الأخير انه يتولى في المكتب السياسي مهمة العلاقات العامة مع الأحزاب الشيوعية خارج روسيا .

وبعد التحيات الاعتيادية ، دخل ستالين فجأة في صلب الموضوع ، فقال : « ان اعضاء اللجنة المركزية في البانيا يقتتلون من اجلكم ، وهذا غير لائق .. غير لائق » .

وبدأت اشرح له ، فقلت : كان ناكو سبيرو ضد ربط البانيا بيوغوسلافيا . وهكذا عزل نفسه داخل اللجنة المركزية . وهنا قاطعني

ستالين بقوله : « ليس لنا اية مصالح هامة في البانيا . اننا نوافق على ان تبتلع يوغوسلافيا البانيـــا ! » ثم جمع اصابع يده اليمين وادناها من فمه ، كأنما يريد ابتلاعها .

وكم كانت دهشتي عظيمة لهذا الاسلوب الذي اعرب به ستالين عن افكاره ، ولإشارة الابتلاع هـذه . ولست ادري اذا كانت دهشتي قـد ظهرت على وجهي . وقد حاولت ان اجعل من تصرفه هذا نكتة ، وان اعتبره تصرّفاً اعتاد عليه ، فتابعت كلامي قائلاً : « ليست القضية قضية ابتلاع ، بل توحيد ! »

وهنا قال مولوتوف : « لكن هذا ابتلاع ! »

واضاف ستالين قائلاً ، وهو يستعمل الاشارة نفسها : « نعم . انـه ابتلاع . ولكننا على وفاق معكم : يجب ان تبتلعوا البانيـــا ـ عاجلاً لا آجلاً . »

وبالرغم من هذه الطريقة في التعبير، فقد كان الجو ودياً للغاية .

لقد عالجت موضوع التقارب من البانيـــا او الاتحاد معها ، مدفوعاً بدوافع ثورية . فقد كنت اعتبر ، مع معظم الآخرين ، ان الاتحاد ، بموافقة الزعماء الالبان التامة ، ليس في صالح البانيا ويوغوسلافيا فحسب ، بل في صالح النزاع القائم بين السرب والالبان . كانت اهميـــة الموضوع ، في نظري ، في انه سيتيح دمج الاقلية الالبانية في يوغوسلافيا بالالبـــان في جمهورية مستقلة داخل الاتحاد اليوغوسلافي الالباني . كان كل حل آخر لمشكلة الاقلية الالبانيـــة في يوغوسلافيا ، حلاً لاعمليـــاً ، لا سيا ان سلخ جزء من الاراضي اليوغوسلافية التي تسكنها الاقلية الالبانية ، يؤدي الى مقاومة شديدة داخل الحزب الشيوعي اليوغوسلافي نفسه .

كان في نفسي للالبـان والالبانيين موضع خاص ، لم يكن من شأنه

الا ان يعزز مثالية اهدافي : وهي ان الالبان ، وخصوصاً الشماليين منهم – بعقليتهم وطرق معيشتهم – يشبهون الى حد بعيد سكان الجبل الاسود الذين انتمي اليهم ، وان حيويتهم وتصميمهم على الحفاظ على استقلالهم ليس لهما مثيل في التاريخ البشري .

ومع انني لم انو الاختلاف مع زعماء بلادي والاتفاق مع ستالين ، فقد وضعتني كلماته أمام فكرتين : الاولى هي التخوف من ان يكون هنالك خطأ في السياسة اليوغوسلافية نحو البانيا ، والثانية هي ان الاتحاد السوفياتي قد توحّد مع دول البلطيق بابتلاعها . كانت ملاحظة مولوتوف هي التي اوحت لي بهذه الفكرة . وقد امتزجت هاتان الفكرتان ، احداهما بالاخرى ، فتولد منهما شعور بان هنالك شيئاً ما على خطأ .

اما فكرة ان هنالك ، ربما ، شيئاً غامضاً ومضطرباً بصدد السياسة اليوغوسلافية نحو البانيا ، فلم تجعلني اعترف بان هذه السياسة قد كانت ، في وجه من الوجوه ، سياسة « ابتلاع » . على انني خشيت ان لا تكون هذه السياسة حائزة على رضى الشيوعيين الالبان ورغائبهم – وهذا ، عندي ، كشيوعي ، مرادف لكونها غير حائزة ايضاً على رضى الشعب الالباني ورغائبه . لماذا قتل سبيرو نفسه ؟ انه لم يكن « برجوازياً صغيراً » و « رازحاً تحت عبء النزعة القومية » ، بل ، بالعكس ، كان شيوعياً وماركسياً . وماذا لو كان الشعب الالباني يريد دولة منفصلة ومستقلة عن يوغوسلافيا ، تماماً ، كما نريد نحن ان يكون لنا دولة منفصلة ومستقلة عن الاتحاد السوفياتي ؟ واذا تم الاتحاد بين البانيا ويوغوسلافيا ، ضد رغبة الشعب الالباني وارادته ، واغتناماً لفرصة بؤسه وعزلته ، الا يقود ذلك الى نشوء خلافات ومتاعب لا علاج لها ؟ ان الالبان ، اثنولوجيّاً وتاريخياً ، شعب ناشيء يفيض بوعي قومي لما يتحقق ، ولا حيلة

في أمر القضاء عليه ، أفلا يجوز ان يعتبروا الاتحاد فقداناً لاستقلالهم ، ونقضاً لفرديتهم ؟

واما الفكرة الثانية ـ وهي ان الاتحاد السوفياتي قد ابتلع دول البلطيق ـ فقد ربطتها بالفكرة الاولى ، مردداً كأنني اريد اقناع نفسي : اننا ، نحن اليوغوسلاف ، لا نريد ، ولا نجروء ، ان نتخذ طريق الوحدة مع البانيا ـ كما انه ليس هنالك اي خطر داهم من ان تقوم دولة استعمارية ما ، كالمانيا ، بالضغط على البانيا واستخدامها قاعدة ضد يوغوسلافيا .

على ان ستالين ارجعني الى الواقع حين قال : «وما رأيك بالخوجا ؟ واي نوع من الرجال هو في نظرك ؟ »

وحاولت ان اتجنب ابداء رأي مباشر وصريح . الا ان ستالين اعرب عن الرأي ذاته الذي انتهى اليه الزعماء اليوغوسلاف ، وهو ان الخوجا برجوازي صغير ، ذو نزعة قومية . » ثم اضاف : «هل تعتقد ان اقوى الزعماء هناك هو شوشا ؟ »

فوافقته على ذلك .

ثم انهى ستالين المحادثة عن البانيا ، وكانت قد استغرقت عشر دقائق ، بقوله : «لا خلاف بيننا . ابعث انت الى تيتو برسالة عن هذا الامر ، باسم الحكومة السوفياتية ، وارني اياها في الغد . »

وخشيت ان لا اكون قد فهمت جيداً ، فاستوضحته ، فكرر طلبه الي ان ابعث انا بالرسالة الى الحكومة اليوغوسلافية ، باسم الحكومة السوفياتية .

وفي تلك اللحظة ، اعتبرت ذلك دليلا على حسن الثقة بي ، وتعبيراً سامياً عن الموافقة على سياسة يوغوسلافيا تجاه البانيا . على انني ، حين اخذت اكتب الرسالة ، في اليوم التالي ، خطر لي انها قد تستغل ، في يوم

من الايام ، ضد حكومة بلادي . وهكذا حرصت على صياغتها بدقــة وايجاز ، على النحو التالي : « دجيلاس وصل موسكو البارحة ، وفي اجتماع عقد معه في اليوم ذاته ، جرى الاعراب عن الاتفاق التام بين الحكومة السوفياتية ويوغوسلافيا حول قضية البانيا . » هــذه الرسالة لم تبعث الى الحكومة اليوغوسلافية ، ولم تستغل ضدها في الخصام الذي وقع ، فيما بعد ، بين موسكو وبلغراد .

ولم تستغرق بقية المحادثة وقتاً طويلاً . فقد دارت حول بعض المسائل العادية ، كمقر الكومنفورم في بلغراد والصحيفة التي تصدرهـا ، وكصحة تيتو ، وما الى ذلك .

على انني اغتنمت الفرصة ، فطرحت مسألة تزويد الجيش اليوغوسلافي بالأسلحة ، والمساعدة على تطوير صناعة يوغسلافيا الحربية . وقد شددت على اننــا غالباً ما نواجــه بعض المتاعب من الممثلين السوفيات ، لأنهم يرفضون اعطاءنا هذه او تلك من المعلومات ، بحجة انها « اسرار عسكرية » . وهنا نهض ستالين صارخاً : « ليس عندنا اسرار عسكرية نخفيها عليكم . انتم بلاد اشتراكية صديقة ـــ ليس عندنا اسرار عسكرية نحجبها عنكم . »

ثم ذهب الى وراء مكتبه . واذ طلب بلغانين على التلفون ، اعطـــاه الأمر التالي : « اليوغوسلاف موجودون هنا ـــ الوفـد اليوغوسلافي . عليك ان تجتمع بهم في الحال . »

وقد استغرقت هذه المحادثة كلها ، في الكرملين ، نحو نصف ساعة . ثم سرنا في طريقنا الى فيللا ستالين لتناول طعام العشاء .

ـ ٥ ـ

ركبنا سيارة ستالين ، وكانت ، كما اظن ، السيارة ذاتها التي ركبتها

مع مولوتوف عام ١٩٤٥ . وجلس زدانوف في المقعد الخلفي على يميني ، بينما جلس ستالين ومولوتوف في المقعدين الأماميين . وفي اثناء هذه الرحلة القصيرة نظرت الى رقبة ستالين وقلت في نفسي : هنا رجل من اقوى الرجال في ايامنا ، وهنا مساعدوه ، فأية كارثة تكون لو انفجرت قنبلة في وسطنا وبعثرتنا الى اشلاء . ولكن هذا التصور لم يدم ، وكان قبيحاً ، وغير متوقع حتى مني ، ولذلك ارعبني . وبحنان حزين ، رأيت في ستالين أباً صغيراً ، عجوزاً ، وهب كل حياته لسعادة الشيوعيين جميعاً .

وفيما وقفنا في بهو فيللا ستالين ننتظر وصول الآخرين ، وجدنا انفسنا ــ ستالين وزدانوف وأنا ــ أمام خريطة العالم . ولفتت نظري ايضاً مدينة ستالينغراد على الخريطة وقد احيطت بدائرة سوداء . وإذ لحظ ستالين اهتمامي بها ، انشرح صدره . وسارع زدانوف الى القول ، وقد رأى تبادل نظراتنا : « انها بداية معركة ستالينغراد . »

ولم يقل ستالين شيئاً .

ثم شرع ــ على ما اذكر ــ يبحث عن مدينة كونيغسبرغ التي سيتغير اسمها الى كالينينغراد . وفي ذلك عثر على اماكن حول لينينغراد ما تزال تحمل اسماء ألمانية منذ عهد القيصرة كاترين . فالتفت ستالين الى زدانوف قائلاً : « غيروا هذه الاسماء ! » وفي الحال اخرج زدانوف مفكرته من جيبه وكتب ذلك بقلم صغير .

ثم ذهبت مع مولوتوف الى المغسلة وقد كانت في الطابق الأسفل . . وفيما نحن في طريقنا ، اخذ مولوتوف يفك ازرار بنطاله وهو يقول : « ندعو هذا تفريغاً يسبق الامتلاء » ، أما أنا ، فبالرغم من انني قضيت وقتاً طويلا في السجون ، حيث يضطر المرء الى نسيان قواعد الأدب

واللياقة ، فقد غلبني الحياء في حضرة مولوتوف ، وهو اكبر مني سناً ، فدخلت مرحاضاً مستقلاً واغلقت الباب ورائي .

واذ عدنا الى غرفة الطعـام ، وجـدنا ستالين ، ومالنكوف ، وبيريا ، وزدانوف ، وفوزنيسينسكي قد تجمعوا . وهـذان الاخيران شخصيتان جديدتان في هذه المذكرات .

كان زدانوف ، كذلك ، رجلا قصيراً . وكان له شاربان اسمران مقصصان ، وجبهة عالية ، وانف محدد ، ووجه احمر عليـل . وكان مثقفاً ، ومنظوراً اليه في المكتب السياسي كمفكر . وبالرغم من ما عرف عنه من ضيق الافق والتزمت ، فيمكنني القول ان معرفته لم تكن ضئيلة . لقد كان له بعض الالمام بكل شيء ، حتى بالموسيقى ، إلا انه لم يكن متضلعاً من اي باب من ابواب المعرفـة — وهو بذلك نموذج رجل الفكر الذي التقط معارفه التقاطاً عن طريق الادب الماركسي . وكـان زدانوف ايضاً عابثاً ، بطريقة فكرية . وهذا ما جعل امره اقبح ، لأن وراء نزعتـه الفكرية كمن الإمام الذي كان « سمحاً » نحو رجال الفكر والقلم . كـان ذلك زمن « المراسيم » — وهي القرارات التي اصدرتها اللجنة المركزية السوفياتيـة عن الادب وسواه من الفنون ، والتي كانت بمثابة هجوم صـاعق حتى على الحريات الشكلية في اختيار الموضوع والاسلوب — تلك الحريات التي بقيت (أو انتزعت) رغم رقابة الحزب البيروقراطية في اثناء الحرب . وانني لأذكر جيداً ان زدانوف اخبرنا ، تلك الليلة ، وكأنما يرسل نكتـة من النكات ، كيف استقبلت لينينغراد نقده لزوتشانكو : لقد صادروا منه بطاقة الاعاشة ولم يعيدوها اليه إلا بعد ان توسطت له موسكو ، مدفوعة بروح السماح !

اما فوزنيسينسكي ، رئيس لجنة التصميم في الاتحاد السوفياتي ، فكان في حدود الاربعين من العمر – روسي الملامح ، عالي الخدين ، واسع الجبهة ، جعد الشعر . وكان يوحي اليك بانه محب للنظام ، ومثقف ، ومتواضع . وكان مقلاً في الكلام ، يحمل ابتسامة داخلية دائمة . وقد كنت قد قرأت كتابه عن الاقتصاد السوفياتي ، في اثناء الحرب ، فترك في نفسي الأثر ان مؤلفه رجل حي الضمير ، رزين التفكير . على ان هذا الكتاب لاقى انتقاداً في الاتحاد السوفياتي ، فيما بعد ، ثم نزل بصاحبه سيف التطهير لاسباب ما تزال مجهولة حتى اليوم .

وكنت قد تعرفت الى شقيق فوزينسينسكي الاكبر ، وكان استاذاً في الجامعة قبل تعيينه وزيراً للتربية في الاتحاد الروسي . وقد جرى لي معه احاديث ممتعة ، حين انعقد مؤتمر الوحدة السلافية في بلغراد ، شتاء ١٩٤٦ . وقد اتفقنا ، ليس فقط على محدودية وتحيز النظريات السائدة حول « الواقعية الاشتراكية » ، بل ايضاً على بروز ظاهرة جديدة في الاشتراكية (اي الشيوعية) ، وذلك بقيام بلدان اشتراكية جديدة وبحدوث تغييرات على النظام الرأسمالي ، لم تكن قد بحثت نظرياً بعد . وليس بمستغرب ان يكون هذا الرأس المفكر الجميل قد سقط ضحية الحملات التطهيرية التي لا معنى لها .

وبدأ الطعام بقول احدهم – اظنه ستالين نفسه – متسائلا عن درجة برودة الطقس آنذاك ، مشترطاً على المجيب ان يشرب من اقداح الفودكا عدداً يوازي الدرجات التي يخطئها . ولحسن الطالع ، كنت ، وانا بعد في الفندق ، قد القيت نظرة على ميزان الحرارة . وهكذا اسقطت بعض الدرجات ، لازدياد البرودة في الليل ، فلم اخطىء إلا بدرجة واحدة .

واذكر ان بيريا اخطأ بثلاث درجات ، فقال انه انما فعل ذلك عن عمد ، لكي يتاح له ان يحتسي عدداً اكثر من الكؤوس .

هذه البداية لحفلة العشاء ، فرضت علي الفكرة الكافرة التالية ، وهي ان هؤلاء الرجال ، وقد انغلقوا ، بعضهم مع بعض ، قد يبتكرون اسباباً سخيفة اخرى لشرب الفودكا — كمقدار طول غرفة الطعام بالاقدام ، أو المائدة بالانشات ! ومن يدري ، فلعل هذا ما كانوا يفعلون . ومهما يكن من امر ، فقد كان تعيين عدد كؤوس الفودكا بموجب درجات الحرارة ، سبباً في ان يجعلني أدرك ، فجأة ، عزلة الحياة التي كان يحياها الزعماء السوفيات ، ووحشتها ، وتفاهتها — وقد تحلقوا زعيمهم المتأله — حتى وهم يلعبون دوراً حاسماً في حياة الجنس البشري . وقد تذكرت ان القيصر الروسي ، بطرس الاكبر ، كان يقيم مع مجرميه امثال هذه المآدب ، فيأكلون ويشربون حتى التخمة والسكر ، فيما كانوا يقررون مصير روسيا والشعب الروسي .

هذا الانطباع عن فراغ حياة كهذه ، لم يضمحل ، بل ظل يعاودني طيلة الحفلة ، بالرغم من محاولتي القضاء عليه . وقد زاد في قوته ما لحظته من شيخوخة ستالين ، وما بدا من عجزه . ولم تستطع شدة احترامي ومحبتي لشخصه — وهو شعور انميته في داخلي بعناد — ان تمحو ذلك الانطباع من نفسي .

كان هنالك ما هو محزن وقبيح معاً في شيخوخته . اما المحزن فلم يكن باديا — ولكنني تخيلته في ذهني حين تأملت في ان هذا الانسان العظيم ، حتى هو ، سيكون مصيره ، آخر الامر ، الى الانحلال . واما القبيح ، وقد ظل ينهض امامي طيلة الوقت ، فهو في ان ستالين ، بالرغم من شغفه بالطعام دائماً من قبل ، قد اصبح الآن شرهاً ، كأنما كان يخشى ان لا تبقى الكمية

الكافية من الطعام الذي اراده واشتهاه . غير انه ، من جهة اخرى ، كان يقلل من الشراب ويحتسيه بحذر ، كما لو كان يحصي كل نقطة منه ــ املاً في تجنب سوء العاقبة .

وكانت قوى ستالين الفكرية ، على ما بدا ، اكثر تدهوراً . فكم احب ان يستعيد ذكريات شبابه ــ نفيه الى سيبيريا ، وطفولته في القوقاز . وكان يقارن كل ما يحدث الآن بما حدث في الماضي ، فيقول مثلاً : « نعم ، اذكر حدوثه من قبل . »

ولقد صعب علي ان اصدق كم تغير في السنتين او الثلاث الاخيرة . فحين قابلته آخر مرة ، عام ١٩٤٥ ، كان لا يزال مليئاً بالحيوية ، سريع الخاطر ، حاد النكتة . ولكن ذلك كان في اثناء الحرب ، التي كانت ، على ما بدا آنذاك ، آخر مجهود بذل له منتهى قواه . لقد اصبح الآن يضحك لهراء الكلام وتوافه النكات . حتى انه عجز عن ادراك المغزى السياسي لحادثة سردتها له عن كيف تغلب على تشرشل وروزفلت . بل انه كاد يحسبها اساءة مني اليه ، كما يفعل الشيوخ . وقد لحظت امائر الحرج على وجوه الآخرين .

على انه في شيء واحد ، ظل ذلك الستالين الذي عرفناه : عنيد ، حاد اللسان ، سيء الظن فيما يخالفه من الناس . حتى انه كان يقاطع مولوتوف فيشعر المرء بالتوتر بينهما . على ان الجميع كانوا يصانعونه ويمالئونه ، متجنبين التعبير عن اي رأي قبله ، حتى اذا ما فعل سارعوا الى موافقته .

واخذ الحاضرون ، كالعادة ، يتنقلون بالحديث من موضوع الى موضوع . وهذا ما سأفعله هنا في سرد ما جرى .

تحدث ستالين عن القنبلة الذرية ، فقال : « انها شيء جبار ، جـ . . با . . ر ! » وبدا الاعجاب على ملامحه ، حتى لقد خيّل الي انه لن

يرتاح ما لم يحصل على هـــذا « الشيء الجبار » . ولكنه لم يذكر ان روسيا كانت قد حصلت عليها أو انها في طريقها الى الحصول عليها .

ولكن بعد ذلك بشهر ، عندما اجتمعت انا وكارديلج بديميتروف في موسكو ، اخبرنا بان روسيا توصلت الى صنع القنبلة الذرية ، وانها قد تكون افضل من القنبلة الاميركية ، اي تلك التي سقطت على هيروشيما . ولكن هذه الرواية لم تكن صادقة ، وانما الصدق فيها ان الروس كانوا لا يزالون في طريقهم الى صنع القنبلة الذرية .

وفي ذلك المساء ، وفي اجتماع آخر مع الوفدين البلغاري واليوغوسلافي ، ألح ستالين على ان المانيا ستبقى مجزأة ، وقال : « ان الغرب سيجعل من المانيا الغربية دولة خاضعة له ، وسنجعل نحن من المانيـــا الشرقية دولة تابعة لنا . »

كانت فكرته هذه جديدة ، ولكنها مفهومة . ذلك انها انطلقت من نهج السياسة السوفياتية في اوروبا الشرقية وتجاه الغرب . ولكنني لم افهم التصريح الذي ادلى به ستالين والقادة السوفيات ، في ربيع ١٩٤٦ ، عن ان المانيا ستكون لهم ، اي سوفياتية ، وشيوعية . وحين سألت في ذلك الحين احد الموجودين عما ستفعله روسيا للاستيلاء على المانيـــا كلها ، قال انه لا يعرف . ولعل الذين ادلوا بهذا التصريح لم يعرفوا ، هم انفسهم ، كيف سيكون ذلك ، ولكنهم كانوا ضحيـــة انتصاراتهم الحربية ، وآمالهم بانهيار الغرب سياسياً واقتصادياً .

وقبل ان ننتهي من تناول الطعام بقليل ، سألني ستالين سؤالاً غـــير متوقع ، فقال : « لماذا ليس في الحزب الشيوعي اليوغوسلافي عـدداً كبيراً من اليهود ، ولماذا لا تلعب القلة الموجودة فيه دوراً هامـاً ؟ » فشرحت له ان ليس في يوغسلافيا نسبة كبيرة من اليهود ، وان معظمهم من الطبقة

المتوسطة ، واضفت : « ان الشيوعي البارز الوحيد هو بيجاد ، وهو يعتبر نفسه صربياً اكثر منه يهودياً . »

وحاول ستالين ان يستعيد معرفته بهذا الاسم ، فأخذ يردد : « بيجاد ، رجل قصير بنظارتين ؟ نعم ، اذكره . لقد زارني مرة . وما هو مركزه ؟ »

فقلت انه عضو في اللجنة المركزية ، وهو شيوعي قديم ، وقد ترجم كتاب « الرأسمال » لماركس . وقال ستالين : « ليس في لجنتنا المركزية يهود . » وأخذ يضحك . ثم تابع كلامه قائلاً : « انت عدو السامية يا دجيلاس ، انت ايضاً يا دجيلاس ، عدو السامية ؟ »

وحملت كلامه هذا على محمل معاكس ، كما يجب ان يُفعل . لقد رمى بذلك الى الاعراب عن عداوته لليهود ، والى استفزازي لأبداء رأيي في اليهود ، وبخاصة اليهود المنضمون الى الحزب الشيوعي . ولكنني ضحكت بهدوء ولزمت جانب الصمت ، وهو أمر لم يكن سهلا عليّ ، بالنظر الى انني لست لاسامياً ، ولا اميز الا بين الشيوعي الصالح والشيوعي الطالح . وقد سارع ستالين نفسه الى ترك هذا الموضوع المحفوف بالمخاطر ، مكتفياً باستفزازه الساخر .

كان مولوتوف الصامت الى شمالي ، والى يميني جلس الثرثار زدانوف الذي اخبرنا عن اتصالاته بالفنلنديين وإعجابه بتقيدهم بمواعيد دفع التعويضات ، وقال : « كل شيء على الوقت ، ومرزوم بمهارة ، ومن الصنف الممتاز ! »

ثم اضاف قائلاً : « لقد اخطأنا في عدم احتلالنا فنلندا ، كل شيء كان على ما يرام لو كنا فعلنا . »

فقال مولوتوف : « آه فنلندا ــ حبة خردل » . وفي ذلك الحين بالضبط ،

كان زدانوف يعقد اجتماعات مع المؤلفين الموسيقيين ، ويعدّ قرارات عن الموسيقى . وكان يحب الاوبرا ، فسألني : « هل عندكم اوبرا في يوغوسلافيا ؟ » فدهشت من هذا السؤال وأجبته : « في يوغوسلافيا ، تعرض الاوبرا على تسع مسارح ! » وتساءلت في نفسي كم هي ضئيلة معرفتهم بيوغوسلافيا ! والحق انها كادت لا تهمهم ، إلا كمكان على الخارطة .

ولاحظت ان زدانوف كان الشخص الوحيد بيننا الذي يشرب عصير الليمون . وقد اخبرني انه لا يستطيع ان يتناول شيئاً سواه ، لأنه مصاب بمرض القلب . فسألته : « هل هو خطر ، مرضك هذا ؟ » وهنا ابتسم بتردد وأجاب بسخريته المعروفة :

« قد اموت في اية لحظة ، وقد أعيش وقتاً طويلا جداً . » ولعله كان حساساً فيا يتعلق بهذا الموضوع ، ولذلك كانت ردة فعله سريعة ويسيرة .

وكان قد صدر اخيراً مشروع خمس سنوات جديد . فقال ستالين دون ان يخاطب أحداً على الأخص : « من الواجب زيادة اجور المعلمين . » ثم التفت الي قائلا : « ان معلمينا ممتازون ، ولكن اجورهم منخفضة ـ يجب ان نفعل شيئاً . »

وتمتم جميع الحاضرين بالموافقة ، بينما اخذت أتذكر بمرارة انخفاض اجور المعلمين عندنا والحالة السيئة التي كانت من نصيب العاملين في الحقل الثقافي ، وعجزي عن مساعدتهم .

وقد حافظ فوزنسينسكي على الصمت طوال الوقت ، متصرفاً كما لو كان صغيراً بين كبار . وقد وجه اليه ستالين سؤالاً واحداً فقط ، وهو : « هل من الممكن بناء قناة بين نهري الفولكا والدون ، خارج مشروع الخمس سنوات ؟ انه لعمل جبار ! يجب ان نجد الوسيلة ، انه لعمل ذو أهمية

من الوجهة العسكرية ايضاً : ففي حالة حرب ، قد يطردوننا من البحر الأسود ـ واسطولنا ضعيف ، وسيبقى ضعيفاً لمدة طويلة . فماذا سنفعل ببواخرنا في هذه الحالة ؟ تصوّر كم كان اسطولنا في البحر الأسود ذا فائدة ، لو وجد في الفولغا ابان معركة ستالينغراد . ان بناء هذه القناة ذو خطورة قصوى ، خطورة قصوى . »

ووافق فوزنسينسكي على انه يمكن ايجاد الوسائل ، ثم اخذ من جيبه دفتراً صغيراً وسجل عليه ذلك .

لقد كنت دائماً متشوقاً الى معرفة مسألتين ، فاردت ان اسأل رأي ستالين فيهما . الاولى في الحقل النظري ، وهي انني لم اعثر ، لا في المؤلفات الماركسية ولا في اي مكان آخر ، على تفسير الفارق بين كلمتي « شعب » و « امة » . واذ كان ستالين معروفاً بين الشيوعيين بتضلعه من قضية القوميات ، فقد احببت ان اعرف رأيه ، مشيراً الى انه لم يعالج هذه المسألة في كتابه عن موضوع القوميات ، الذي نشر قبل الحرب العالمية الاولى ، واصبح منذ ذلك الحين يعبر عن وجهة النظر البولشفية في هذا الموضوع .

وقد اجاب مولوتوف على سؤالي ، فقال ان لكلمتي « شعب » و « امة » معنى واحد .

ولكن ستالين لم يوافق على ذلك ، فقال : « كلا . هذا هراء ، هنالك فارق بينهما ! » ثم شرع يشرح قائلا : « الامة ، انتم تعرفون ما هي : انها حصيلة الرأسمالية مع بعض الخصائص . اما الشعب ـ فهم عمال امة ما من الامم ـ اي عمال تجمعهم لغة واحدة ، وثقافة واحدة ، وعادات واحدة . »

واضاف ستالين ، بصدد كتابه « الماركسية والقضية الوطنية

والاستعمارية » ، فقال : «كان ذلك رأي ايليش ـ رأي لينين . فقد نقح ايليش الكتاب ايضاً . »

وكانت المسألة الثانية تتعلق بدوستويفسكي . فمنذ عهد الشباب ، كنت اعتبر دوستويفسكي اعظم كاتب في العصر الحديث ، ولم اكن استطيع ان اتحمل ضمناً ، التهجمات الماركسية عليه .

وقد اجاب ستالين على هذا ببساطة ايضاً ، فقال : « انه كاتب كبير ورجعي كبير . ونحن لا ننشر كتبه لأن لها تأثيراً سيئاً على الشباب . ولكنه ، حقاً ، كاتب عظيم . »

وانتقلنا الى غوركي . فاشرت الى انني اعتبر ان اعظم مؤلفاته ـ من حيث الاسلوب والتعمق في وصف الثورة الروسية ـ هو « حياة كليم سامجين » . الا ان ستالين لم يوافق ، وقال متجنباً الحديث عن الاسلوب : « لا ، ان احسن مؤلفاته هي تلك التي كتبها في البداية : « مدينة اوكوروف » ، وقصصه ، و « فوما غورديف » . اما من حيث تعمقه في وصف الثورة الروسية ، فليس في الكتاب سوى ثورة صغيرة ، وبطل بولشفيكي واحد ـ ماذا كان اسمه ؟ ليوتيكوف ، ليوتوف . »

فقلت ، مصححاً خطأه : « كوتوزوف ـ ان ليوتوف شخص آخر مختلف تماماً . »

وقال ستالين : « اجل ، كوتوزوف ! لقد صورت الثورة في الكتاب من ناحية واحدة . أما من وجهة النظر الأدبية ايضاً ، فانني ارى ان آثار غوركي الاولى كانت افضل . »

وبدا من الواضح لي ان احداً منّا لم يفهم الآخر ، وانه لم يكن باستطاعتنا ان نتفق ، غير ان الفرصة قد سنحت لي لسماع آراء متأدبين آخرين ، كستالين ، في ان مؤلفات غوركي الأولى كانت أفضل ما كتبه .

وفي كلامي على الأدب السوفياتي المعاصر ، اشرت ، كما يفعل معظم الاجانب ، الى عبقرية شولوخوف ، فانبرى ستالين قائلاً : « هناك من هم افضل منه الآن » . ثم ذكر اثنين ، احدهما امرأة ، ولم أكن قد سمعت بهما من قبل .

وتجنبت الدخول في المحادثة حول كتاب فاديف « الحارس الشاب » ، لأنه كان في ذلك الوقت عرضة للهجوم بسبب افتقار ابطاله الى « الحزبية » الكاملة . وكذلك حول كتاب الكسندروف ، « تاريخ الفلسفة » ، الذي انتُقد على اسس معاكسة تماماً ـ الرجعية ، والسطحية ، والابتذال .

وذكر زدانوف رأي ستالين في قصائد حب كتبها ك . سيمونوف ، وهو انه « كان يجب ان ينشروا نسختين ، الاولى لها ، والثانية له . » فضحك ستالين بلؤم ، بينما قهقه الآخرون .

ولم يكن من المعقول ان ان يمر المساء دون ابتذال ـ اي ، ولنكن اكثر وضوحاً ، دون عمل يقوم به بيريا لقد اجبروني على ان اشرب كأساً صغيرة من « البريتوسكوفا » اي الفودكا الممزوجة بالبهار . واوضح بيريا ان لهذا الشراب الكحولي تأثيراً عاطلاً على الأعضاء الجنسية ، واستعمل تعابير وقحة في كلامه . وحملق فيّ ستالين عمداً عندما تكلم بيريا ، مستعداً لأن ينفجر ضاحكاً ، الا انه بقي جاداً عندما لاحظ مدى استيائي .

وحتى لو لم يحدث ذلك ، فأنني لم اكن استطيع ان ابعد من راسي فكرة المقارنة بين بيريا ومدير البوليس الملكي في بلغراد .

ومهما يكن ، فقد كنت اعتبر ان اهم شيء هو الجوّ الذي خيم فوق وما وراء الكلمات ، في اثناء هذه الجلسة التي استمرت ست ساعات . اذ كان خلف كل ما قيل ، شيء اهم بكثير ـ شيء يجب ان

يقــال ، غير ان احداً لم يجروء على ان يقوله . فالمحادثة « الاجبارية » ، واختيار المواضيع ، قد جعلا هذا « الشيء » يبدو حقيقياً . حتى انني كنت متأكداً من محتواه : انتقاد تيتو واللجنة المركزية اليوغوسلافية . وفي تلك الحالة كنت سأعتبر هذا الانتقاد دعوة منهم لي للوقوف الى جانب الحكومة السوفياتية . وكان زدانوف متحمساً ، بصورة خاصة ، وذلك بابداء الود والتقرب مني . وكان بيريا يركز علي عينيه الخضراوين ، بينما ظلت شفافية السخرية بادية على فمه المربّع . وفوقهم جميعاً ، كان ستالين معتدلاً وبارداً.

واصبحت الفترات الخرساء بين المواضيع اطول من قبل . وتضخم التوتر في داخلي وحولي . وعلى الفور هيــأت نفسي للمقاومة والدفاع . كنت سأقول ببساطة انني لا اجــد خلافاً بين الزعمــاء اليوغوسلاف والسوفيات ، وان اهدافهم واحدة ومتشابهة . وكان شعور عنيف بالمقاومة يثور في داخلي . ومع انني لم اشعر من قبــل بأية ثورة داخلية ، فقد ادركت ، لانني اعرف نفسي ، ان موقفي الدفاعي قــد يتحول الى موقف عدائي ، اذا اوقعني ستــالين والآخرون في مأزق معنوي ، هو الاختيــار بينهم وبين ضميري ، او بالاحرى بــين حزبهم وحزبي ، بين يوغوسلافيا والاتحاد السوفياتي . ولهذا كنت اشير الى تيتو والى اللجنــة المركزية اليوغوسلافية بطريقة عابرة ، ولكن بشكل لا يسمح لهم بالدخول في المحادثة التي كانوا يعتزمون اثارتها .

وقـد ذهبت عبثــاً محاولة ستالين استدراجي بمعاملتي معاملة شخصية حميمــة . فقد اعاد الى الذاكرة الدعوة التي وجهها اليَّ عام ١٩٤٦ ، بواسطة تيتو ، وقال : « لماذا لم تأت الى جزيرة القرم ؟ لماذا رفضت دعوتي ؟»

كنت اتوقع هذا السؤال ، ومع ذلك دهشت بامتعاض لأن ستالين لم ينس ما حدث . واوضحت قائلا : « كنت انتظر الدعــوة بواسطة

السفارة السوفياتية . فقد شعرت انـه من غير المستحسن ان افرض نفسي فرضاً ، وازعجكم ! »

واراد ستالين امتحاني فقال : « هراء . لا ازعاج على الاطلاق ، انك لم تحب ان تأتي . هذا كل ما في الامر » .

إلا انني لم اجب ، وبقيت صامتاً ومتحفظاً .

وهكذا انتهى الأمر بسلام ، ولم يحدث شيء . ذلك ان ستالين وجماعته قد شعروا بمقاومتي . وهـذا ما كنت اريده . لقـد اوهمتهم ، فلم يجرؤوا على اثارة هذه المقاومة . ولعلهم ظنوا انهم تجنبوا القيـام بخطوة سابقة لأوانها ، ولذلك خاطئـة . غير انني اصبحت متنبهاً لتلك اللعبـة المستترة ، وشعرت في داخلي بقوة قادرة على ان ترفض حتى ما كنت اعيش به ولأجله .

وقـد انهى ستالين المأدبة بشرب نخب لينين : « دعونا نشرب نخب زعيمنا ، ومعلمنا فلاديمير ايليش ! »

ووقفنا جميعاً وشربنا في جدية خرساء ، سرعان ، لشدة سكرنا ، مـا نسيناها . إلا ان امائر الجد ظلت ، كما كانت ، على وجه ستالين .

وغادرنا المائدة . وقبل ان نبدأ بالتفرق ، ادار ستالين فونوغرافـاً اوتوماتيكياً ضخماً . حتى انه حاول ان يؤدي رقصة شعبية . وبـدا انه يملك حس النغم والايقاع . ثم توقف بعد فترة قصيرة وقال : « ان للسن حقه ، وأنا رجل شيخ » .

الا ان معاونيه ــ أو بالاحرى متملقيه ــ اخذوا يقولون : « لا . لا . هذا هراء . انك على خير ما يرام ... بالنسبة لسنك ... »

ثم ادار ستالين اسطوانة اخرى ، رافق صوت المغنيـة فيها نبـاح الكلاب . ثم اخذ يضحك بصوت مرتفع جداً ويقهقه بقوة .

وتخلّف الجميع ، الا انهم كانوا يستعدون للذهاب . اذ لم يبق هناك ، بالفعل ، شيء يقال في مثل هذه الجلسة الطويلة التي بحث فيها كل شيء ، ما عدا سبب اقامة المأدبة .

- ٦ -

انتظرنا يومين او اكثر قبل ان ندعى الى الاركان العامة لتقديم طلباتنا . وكنت ، عندما كنا في القطار ، قد ذكرت لكوكا بوبوفيتش وميجالكو تودورفيتش ان طلباتها لم تكن ، في نظري ، واقعية ، وانها مبالغ فيها . اذ قد صعب علي ، بصورة خاصة ، ان افهم لماذا سيوافق الروس على بناء الصناعة الحربية في يوغوسلافيا ، في حين كانوا لا يريدون الاشتراك جدّياً في تطوير صناعتنا المدنية . ثم انه ليس من المعقول ان يعطونا اسطولاً حربياً ، في حين انهم لا يملكون ، هم أنفسهم ، مثل هذا الاسطول .

وقد بدا لي ايضاً ان القول بأن لا فرق بين ان يكون ليوغوسلافيا او للاتحاد السوفياتي اسطول في الادرياتيكي – ما دام كلاهما في عالم متحد – أمر غير واقعي ، خصوصاً لان الشقاق اخذ يذر قرنه في هذا العالم ، ناهيك بعدم ثقة السوفيات باحد ، واهتمامهم ، البادي للعيان ، بدولتهم وحدها اولاً .

اما وقد كانت جميع هذه الطلبات قد درست وتقررت في بلغراد ، فلم يكن امامي الا ان اقف الى جانبها .

كان مبنى الاركان العامة يبدو من الخارج بسيطاً جداً . وقد رئس

بولغانين الاجتماع ، يحيط به كبار الخبراء العسكريين ، بينهم رئيس الاركان العامة المارشال فاسيلفسكي .

وبدأت بعرض مطالبينا بصورة عامة ، تاركاً العرض المفصل لتودوروفيتش وبوبوفيتش . ولكن الجانب السوفياتي لم يتعهد بشيء ، بل اخذ اعضاؤه يستوضحون ، بحذر ، عن مشاكلنا ويدونون كل شيء . ثم غادرنا الاجتماع ونحن راضون ومقتنعون بأن العمل الحقيقي سيبدأ عما قريب .

وبدا ان ذلك سيتحقق فعلاً . فقد دعي تودوروفيتش وبوبوفيتش بعد حين ، الى اجتماعات اخرى . الا ان كل شيء توقف فجأة . وقد اشار السوفيات الى ان « مشاكل جديدة قد برزت ، وانه يجب علينا ان ننتظر . »

واتضح لنا جيداً ان شيئاً ما كان يدور بين موسكو وبلغراد ، بالرغم من اننا لم نعرف ما هو بالضبط ، كما اننا لم نفاجأ بذلك ولم نعجب له . وفي اية حال ، فقد كان موقف بلغراد تجاه حقيقة الاتحاد السوفياتي ، وموقف موسكو تجاه بلغراد ، يجعلان تأجيل المحادثات امراً لا يحتمل ، خصوصاً وقد وجدنا ان ليس هنالك ما نستطيع فعله ، سوى اضاعة الوقت بالذهاب الى المسارح الروسية التقليدية .

ولم يجرؤ احد من المواطنين السوفيات على زيارتنا لاننا ، بالرغم من انتمائنا الى بلد شيوعي ، كنا من صنف الغرباء ، الذين لا يسمح للسوفيات بالتعامل معهم ، وفقاً لاحكام القانون . وهكذا اقتصرت جميع اتصالاتنا على المسؤولين في وزارة الخارجية ، وفي اللجنة المركزية .

وقد ازعجنا ذلك واساء الينا ، خصوصاً لأنه لم يكن هنالك مثل

هذه القيود في يوغوسلافيا ، وخاصة ازاء مواطني الاتحاد السوفياتي وممثليه . وهذا ما جعلنا ننتهي الى اتخاذ موقف اللائم المنتقد .

على ان موقفنا الانتقادي لم يكن قد تكوّن بعد ، ولكنه كان يتعزز بامثلة اخذناها من خبرتنا الواقعية . فقد اكتشف فوكمانوفيتش – تامبو اخطاء في ابنية الجيش ، لم يشأ ان يخفيها عنا . ولكي نخفف عنا سأمنا ، انتقلنا انا وكوكا بوبوفيتش من شقتينا المستقلتين في فندق موسكفا الى شقة واحدة ، ولكن بعد ان انتظرنا قدوم «الكهربائي» ليصلح اسلاكها . وهذا ما جعلنا نظن ان جهازاً خفياً للاستماع قد وضع فيها . وبالرغم من ان فندق موسكفا كان حديثاً ، واكبر الفنادق في موسكو ، فقد كان ينقصه كثير من الاصلاحات – كان بارداً ، ويتسرب الماء من حنفياته . وكانت احواض حماماته ، وقد استوردت من المانيا الشرقية ، غير صالحة للاستعمال ، لانك ما ان تفتح المـــاء حتى تفيض فتملأ ارض الغرفة . ولم يكن للمغسلة مفتاح . وقد عقّب بوبوفيتش على ذلك بسخرية قائلاً بان المهندس كان يعرف ان المفتاح سيضيع ، لذلك وضع الحوض قرب الباب ، حيث يستطاع اغلاقه بقدم واحدة !

ولم اتمالك من استرجاع ذكريات نزولي السعيد في فندق ميتروبول ، عام ١٩٤٤ . فقد كان كل شيء قديماً ، ولكنه في حالة جيدة . وكان الخدم يحسنون الانكليزية والفرنسية ، ويخدمون الضيوف بادب ودقة . اما في فندق موسكفا ... فقـــد سمعت ذات يوم عنينا في المغسلة . واذ اسرعت اليها ، وجدتني امام خادمين ، احدهما يصلح شيئاً في السقف ، والآخر يرفعه على كتفيه . فصحت بهما قائـــلا : «بالله عليكما ، ايهـــا الرفيقان . لماذا لا تأتيان بسلّم ؟» فاجابا : «لأيام ونحن نسأل الادارة ، ولكن عبثاً – ونحن دائماً نشقى هكذا كما ترانا !»

وفي تجوالنا في « موسكو الجميلة » ، وهي في معظمها قرية كبيرة ، مهملة ، لا تمتد اليها يد الأصلاح والتطوير . ولم يكتم السائق بانوف عجزه عن التصديق ان هنـــالك من السيارات عـدد يفوق ما في نيويورك وباريس ، مع انه لم يخف عـــدم رضاه عن حال السيارات السوفيـــاتية الجديدة .

وحين قمنا بزيارة للمقابر الامبراطورية في الكرملين ، اخذت الفتاة التي طافت بنا هناك تقول « قياصرتنا » بفخار وحماسة وطنيين . وقـد كان شعور الروس بالتفوق واضحاً في كل مكان ، بل كان يتخـــذ اشكالا صارخة .

وهكذا دواليك ... فقد كنا ، عند كل خطوة ، نعثر على ناحية لم تكن حتى الآن قد ظهرت لنا من الواقع السوفياتي : كان واقعاً متخلفاً ، بدائياً ، كارهاً للغريب ، شاكياً من عقدة الدولة الكبرى ، بالرغم من انه بذل جهداً بطولياً جباراً للخروج من طوق المـاضي واللحاق بموكب الاحداث في سيرها الطبيعي .

واذ كنـــا نعرف عن الزعماء السوفيات والمسؤولين السياسيين انهم كانوا يتخذون من اي انتقاد برهاناً على الشعور بالعداوة ضد السوفيات ، فقد لزمنا نحن حلقتنا الصغيرة في حضرة الروس . وحيث اننا كنا ايضاً بعثة سياسية ، فقد شرعنا بتحذير بعضنـا البعض من اي شيء « نابٍ » قد نفعله أو نقوله ، وهكذا غدا موقفنا الدفاعي واعياً ومتعمداً . وقد كنا نعلم ان اجهزة الاستماع كانت تستخدم . وانني اذكر كيف كنـــا ننتبه الى مـــا نقول في الفندق وفي المكاتب ، وندير الراديو في اثناء الحـــديث .

وليس من ريب ان الممثلين السوفيات قد لحظوا ذلك . وهكذا ازداد التوتر والريبة .

وفي هذا الوقت اعيد نعش لينين الى الساحة الحمراء ، وكان قد نقل من موسكو الى داخل البلاد في اثناء الحرب . وذات صباح ، ذهبنا لزيارته . وما كانت هذه الزيارة ، بحد ذاتها ، امراً هاماً ، لو لم تبعث فينا شعوراً جديداً بالمقاومة ، لم يكن فينا من قبل . وفيما كنا نهبط المكان ببطء ، رأينا كيف كانت النساء الساذجات ، وقد تدثرن بشالاتهن ، يرسمن الصليب على صدورهن ، كأنما كن يقتربن من مقام قديس . وقد غلبني ، انا ايضاً ، شعور صوفي ، وعاد الي شيء كان في عهد الصبا . أضف الى ذلك ان كل شيء كان مرتباً بحيث يثير مثل هذا الشعور في الانسان ـ الحجارة الرخامية ، الحراس الواقفون بلا حراك ، مصدر الضوء الخفي فوق لينين ، بل حتى رفاته ، وقد يبست وابيضت كالكلس ، مع قليل من الشعر ، كأنما غرسه أحد هناك غرساً . وبالرغم من احترامي لعبقرية لينين ، فقد بدا لي هذا التجمع الصوفي حول جسد لينين الفاني ، أمراً غير طبيعي ، بل أمر ، فوق ذلك ، منافٍ للمادية واللينينية .

وكنا لنرغب في زيارة لينينغراد ، حتى لو لم نكن عاطلين عن العمل . انها مدينة الثورة ، ومدينة الجمالات الكثيرة . وقد سألت زدانوف عن امكان ذلك ، فوافق برحابة صدر ، ولكنني لحظت عنده شيئاً من التحفظ . وفي اجتماعنا الذي لم يدم اكثر من عشر دقائق ، سألني رأيي في مقال كتبه ديميتروف في جريدة البرافدا ، لمناسبة زيارته لبخارست ، يدعو فيه الى تنسيق الخطط الاقتصادية وانشاء اتحاد جمركي

بين بلغاريا ورومانيا ، فاجبت انني لم اعجب بهذا المقال ، لأنه عالج العلاقات الرومانية ـ البلغارية على حدة ، وفي وقت سابق لأوانه . وقد كان زدانوف ايضاً غير راضٍ عن المقـال ، ولكنه لم يورد اسبابه ، غير ان هذه الاسباب سردت بعد حين ، وسأعرضها بتفصيل فيما بعد .

وحول هذا التاريخ ، قدم بوغدان كرنوبرينا موسكو ، مندوباً عن دائرة التجارة الخارجية في الحكومة اليوغوسلافية . واذ وجـد انه لم يستطع التغلب على بعض العقبات الاساسية في محادثته مع الدوائر السوفياتية المختصة ، طلب الي ان ارافقه في زيارة نقوم بهـا لميكويان ، وزير التجارة الخارجية .

واستقبلنا ميكويان ببرود ، معرباً عن نفاذ صبره . وكان من بين مطاليبنا ان يسلمنا الروس عربات السكك الحديدية من المناطق التي يحتلونها ، والتي قد وعدونا بها ـ لأن عدداً كبيراً من هذه العربات قد نقل من يوغوسلافيا ، ولأن السوفيات لا يستطيعون استعمالها لكون خطوطهم الحديديـة اعرض من خطوطنا .

وصاح ميكويان سائلاً ببرودة : « وكيف تريدوننا ان نعطيكم اياها ؟ وبأية شروط ؟ وما هو الثمن ؟ »

فأجبت قائلاً بأدب : ان تعطونا اياها كهبة ! »

فقال بجفاء : « ان مهمتي ليست منح هبات ، بل التجارة ! »

وكذلك ايضاً ذهبت عبثاً مساعي كرنوبرينا ، ومساعي انا ، لتعديل اتفاقية بيـع الأفلام السوفياتية ، التي كانت غير عادلة ومضرّة بيوغوسلافيا . ورفض ميكويان حتى ان يبحث في الأمر ، بحجة ان بعض بلدان اوروبا الشرقية قد تعتبر هذا العمل سابقة . على ان موقفه تغير حين انتقلنا الى

الحديث عن موضوع النحاس اليوغوسلافي . فقد عرض علينا ان يدفع ثمنه نقداً بأية عملة ، وبالعين من اي نوع ، وبأي مبلغ .

وهكذا لم نتوصل معه الى نتيجة ما ، سوى اطالة المفاوضات العقيمة اللامتناهية . وكان من الواضح ان دواليب الآلة السوفياتية قد توقف ، فيما يتعلق بيوغوسلافيا .

غير ان رحلتنا الى لينينغراد جلبت لنا الفرج .

وقبل ان اقوم بزيارة للينينغراد ، لم أكن اصدق ان أحداً قد اظهر تضحيــة وبطولة أكثر من المجاهدين اليوغوسلاف وسكان المناطــق اليوغوسلافية الثائرة . إلا ان لينينغراد قد فاقت على الثورة اليوغوسلافية ، ان لم يكن بالبطولة ، فبالتضحية الجماعية ولا ريب . ففي هــذه المدينة التي يسكنها الملايين ، والتي انقطعت عنهــا المواصلات فأصبحت بلا محروقات ولا أغذية ، والتي كانت هدفاً لنيران المدافع الثقيلة والقنابل ، مات ثلاثمئة ألف نسمة من الجوع والبرد ، في شتاء ١٩٤١ ـ ١٩٤٢ . لقد تحول النــاس الى آكلي لحوم البشر ، ولكن لم يخطر في بال أحد فكرة الاستسلام . هذه صورة عامة عن المدينة . ولم يكن إلا بعـد ان وقفنا وجهاً لوجه أمام الحقائق ـ اي أمام وقائع بطولية وفدائية معينة ، وأمام الأحياء الذين اشتركوا في النضال او شهدوه ـ ان احسسنا بعظمة ملحمة لينينغراد والقوة التي بمقدور الكائنات البشرية ـ الشعب الروسي ـ ان يستجمعهــا حين تكون اسس وجوده الروحي والسياسي وطريقـة حياته مهددة بالخطر .

ولقد اضافت مقابلتنا للمسؤولين في لينينغراد ، حرارة انسانيــة الى اعجابنا . كانوا رجالاً بسطاء ، ومثقفين ، وكادحين ، حملـوا ، وما زالوا

يحملون ، على عواتقهم وفي قلوبهم مسؤولية مأساة عظمة مدينتهم . ولكنهم عاشوا حياة موحشة ، وكانوا مغتبطين بمقابلة اناس من دنيا اخرى ومن ثقافة غير ثقافتهم . وقد انسجمنا معهم بسرعة وسهولة ـ كبشر تغلبوا على نكبة مماثلة . ومع انه لم يخطر لنا ان نتذمر من الزعماء السوفيات ، فقد لاحظنا ان هؤلاء الناس قد تناولوا حياة مدينتهم ـ وهي اكبر مركز صناعي وثقافي في روسيا الواسعة كلها ـ بطريقة أكثر بساطة وانسانية من المسؤولين في موسكو .

وقد بدا لي انني استطيع ان اتفاهم سياسياً مع هؤلاء القوم ، بمجرد استعمال لغة الانسانية . والحق انني لم اعجب ابداً حين سمعت ، بعد سنتين ، ان هذا الشعب ، ايضاً ، قد فشل في الخلاص من نير الديكتاتورية، وما ذلك إلا لأنه تجرأ على ان يكون بشراً .

هذه المرحلة اللينينغرادية المشرقة ، ولكن الحزينة ، من اقامتنا ، قد أصيبت بلطخة مزعجة واحدة : مرافقنا ليساكوف . كان ممكناً في ذلك الوقت ، مصادفة بعض المسؤولين السوفيات الذين برزوا من الطبقات العاملة السفلى. لقد بدا على ليساكوف انه قروي جاهل ، وإنه كان عاملا بسيطاً حتى وقت قريب . وما كانت هذه النواقص لتكون آفات ، لو لم يحاول اخفاءها ويتظاهر بما كان فوق امكاناته . والحقيقة هي انه لم يصل الى ما وصل اليه بفضل جهوده ومقدرته ، بل انما جر اليه جراً . فقد عيّن قسراً في اللجنة المركزية كمسؤول عن الشوؤن اليوغوسلافية . كان مزيجاً من عامل استخبارات ومسوؤل حزبي . وكان يتصرف تصرفاً حزبياً ، ويلعب دور العضو في الحزب ، ويتولى مهمة جمع المعلومات عن الحزب اليوغوسلافي وزعمائه .

كان قصير القامة ، مجعد الوجه ، ذا اسنان صفراء قصيرة ، يضع ربطة

عنق بلا ترتيب ، ويلبس قميصاً يتملص من حافــة بنطاله . وكان يخشى باستمرار من ان يبدو « غير مثقف » . وهو لو ظل عاملا عاديا ، ولم يعط مثل هذه الوظيفة الهامة ، مما جعله يعمد بالحاح الى اثارتنا – وخصوصاً انا – للدخول معــه في احاديث مزعجة ، لكان رجــلا حلو المعشر . وقد امتــدح كيف ان « الرفيق زدانوف طهر اللجنة المركزيـة من جميع اليهود ! » – ولكنه في الوقت نفسه اثنى ثنــاء عظيماً على المكتب السياسي الهنغاري الذي كان إذاك يتألف ، في اغلبيته الساحقــة ، من المهاجرين اليهود . وهذا ما جعلني افكر بأن الحكومة السوفياتية ، بالرغم من نزعتها الخفية المعادية للسامية ، قد وجدت من المناسب الابقــاء على اليهود في المراكز العليا في هنغاريا . ذلك لأنهم كانوا مقتلعي الجذور ، مما جعلهم اكثر اعتماداً عليها .

وكنت قد سمعت ولاحظت انــه ، حين يراد التخلص من احدهم في الاتحاد السوفياتي ، دون ان يكون هنالك اسباب مقنعة لذلك ، عُمد الى اذاعة بعض الشائعات عنه ، بواسطة عمــلاء البوليس السري . وهكذا اخبرني ليساكوف – مؤتمناً اياي على السر – بأن الماريشال جوكوف قد طرد لانه نهب مجوهرات في برلين . وقال : « اتعرف ؟ ان الرفيق ستالين لا يطيق سوء الاخلاق ! » أمــا عن الجنرال انطونوف ، مساعد رئيس هيئة الاركان العامة ، فقد قال : « تصور ، لقد اكتُشف انــه من أصل يهودي ! »

لقــد كان من الواضح ان كيساكوف ، رغم قصور ذكائه ، كان مطلعاً على بعض الشؤون المتعلقة باللجنة المركزية اليوغوسلافيـة وأساليب عملها . وفي ذلك قال : « ليس في اي حزب من احزاب اوروبا الشرقية من يراقب مراقبة دقيقة مثلكم انتم الاربعة . »

على انه لم يذكر اسماء هؤلاء الاشخاص الاربعة ، لكنني فهمت دون ان اسأله انه كان يشير الى تيتو ، وكاردیلج ، ورانكوفيتش ، وانا . ولكني بعد قليل من التفكير ، انتهيت الى الخلاصة التالية ، وهي اننا كنا ، كفنلنديي مولوتوف ، «حبة خردل» في نظر القيادة السوفياتية .

ـ ٧ ـ

بعد ايام من البطالة ، قرر كوشا بوبوفيتش العودة الى بلدنا ، تاركاً تودوروفيتش في موسكو لاستقبال النتيجة ، أي لانتظار حلول الشفقة في قلوب المسؤولين السوفيات ، فيستأنفون المباحثات . وكنت ذهبت مع بوبوفيتش ، لو لم تصل رسالة من بلغراد تعلن وصول كاردیلج وباكاريتش . وهكذا انضممت اليهم في مباحثة الحكومة السوفياتية بصدد «الملابسات التي نشأت» .

وصل كاردیلج وباكاريتش يوم الاحد في ٨ شباط (فبراير) عام ١٩٤٨ . وكانت الحكومة السوفياتية ، في الحقيقة ، قد دعت تيتو ، الا ان حكومة بلغراد اعتذرت بحجة ان تيتو لم يكن في حالة صحية جيدة ــ وهذا مثل بسيط على انعدام الثقة بين الجانبين . وهكذا جاء كاردیلج بدلا عنه . وفي الوقت نفسه كانت الدعوة قد وجهت الى وفد من الحكومة البلغارية ، اي اللجنة المركزية . وقد علمنا ذلك من ليساكوف ، مؤكداً عن عمد ان «الزعماء الكبار» قد وصلوا من بلغاريا .

وقبل ذلك ، اي في ٢٩ كانون الثاني (يناير) ، كانت صحيفة «برافدا» قد هاجمت ديميتروف وبرأت نفسها من «وحداته واتحاداته الخيالية والعويصة» ومشاريعه بصدد الاتحادات الجمركية . وكان هذا

انذاراً بالاتجـاه الصارم والاجراءات الملموسة الـتي ستتخذها الحكومة السوفياتيـة .

ونزل كارديلج وباكاريتش في فيللا قريبـة من موسكو ، فانتقلت اليهم . وفي تلك الليلة نفسها ، وبينما كانت زوجـة كارديلج تغط في النوم ، وهو مستلقٍ بالقرب منهـا ، اقتربت منه واطلعته بهدوء على انطباعاتي عن موسكو وعن اتصالاتي بالزعماء السوفيات . واستنتجت له من ذلك اننا لا نستطيع ان نعتمد على اية مساعدة جدية ، بل علينا ان نعتمـد على انفسنا . ذلك لان الحكومة السوفياتيـة تتبع سياسة السيطرة ، وهي تحـاول ان تشد بيوغوسلافيا الى مستوى بلدان اوروبا الشرقية المحتلة .

واخبرني كارديلج اذاك ، او ربما بعد وصوله بقليـل ، ان السبب الحقيقي للخلاف مع موسكو هو الاتفـاق الذي ابرم بين الحكومتين اليوغوسلافية والالبانيـة ، والذي يسمح بـدخول فرقتين عسكريتين يوغوسلافيتين الى البانيا .

وكـان قد تم تشكيل الفرقتين ، فيما كان سرب من الطـائرات اليوغوسلافية المقاتلة في طريقه الى البانيا ، حين احتج الاتحاد السوفياتي بشدة ، رافضاً قبول الحجة القـائلة بان الفرقتين اليوغوسلافيتين كانتا لازمتين للدفاع عن البانيا ضـد هجوم قد يشنه الملكيون الفاشيست في اليونان . وقـد هدد مولوتوف ، برسالة بعث بهـا الى بلغراد ، بجعل الخلاف علنيا .

وفي اليوم التالي لوصول كارديلج ، وبينما كنا نتنزه في الحديقة العامة ، تحت انظار العملاء السوفيات الذين ظهرت امائر الغضب على وجوههم لأنهم لم يستطيعوا سماع كلامنا ، تابعت حـديثي مع كارديلج بحضور

باكاريتش . كانت المواضيع التي طرقناها اوسع واكثر تفصيلا في التحليل ، وبالرغم من بعض الاختلاف البسيط في الاستنتاج ، فقد اجمعنا على الرأي في النهاية . وكالعادة ، كنت اشدهم حزماً وصراحة .

ولم يكن قد اطلعنا احد على شيء ، ولم تبدر اية اشارة من الجانب السوفياتي حتى مساء اليوم التالي ، في ١٠ شباط (فبراير) ، حين نقلونا بالسيارة الى مكتب ستالين في الكرملين . وهناك انتظرنا ، مدة ١٥ دقيقة ، وصول اعضاء الوفد البلغاري ـ ديميتروف ، وكولاروف ، وكوستوف ـ ولدى وصولهم ، اخذونا فوراً الى مكتب ستالين ، حيث جلسنا . فكان الى يمين ستالين الممثلون السوفيات : مولوتوف ، وزدانوف ، ومالينكوف ، وسوسلوف ، وزورين ـ والى يساره البلغاريون : كولاروف ، وديميتروف ، وكوستوف ، ثم نحن اليوغوسلاف : كارديلج ، وباكاريتش ، وانا .

لقد قدمت ، في ذلك الحين ، تقريراً خطياً عن هذا الاجتماع الى اللجنة المركزية اليوغوسلافية . وبما انني لا استطيع الحصول على ذلك التقرير الآن ، فانني ساعتمد على ذاكرتي ، وعلى ما نشر عن هذا الاجتماع .

كان مولوتوف اول المتكلمين ، فاعلن ، بجفائه المعهود ، ان خلافاً خطيراً نشأ بين الحكومة السوفياتية من جهة ، وبين الحكومتين البلغارية واليوغوسلافية من جهة اخرى . وهو خلاف « لا يمكن التغاضي عنه ، لا من الناحية الحزبية ، ولا من وجهة النظر السياسية . »

ثم اعطى امثلة على هذا الخلاف ، فقال ان يوغوسلافيا وبلغاريا قد وقعتا على معاهدة تحالف ، ليس بدون معرفة الحكومة السوفياتية فحسب ، بل

بما يتنافى مع وجهة نظرها ايضاً – وهي التي تنص على ان لا توقع بلغاريا اية معاهدة سياسية قبل توقيع معاهدة صلح .

ورغب مولوتوف في اطالة الحديث عن بيان ديميتروف في بوخارست حول ايجاد اتحاد اوروبي شرقي تشترك فيه اليونان ، وعن اتحاد جمركي وتعاون في المشاريع الاقتصادية بين بلغاريا ويوغوسلافيا . الا ان ستالين قاطعه قائلا : « ان الرفيق ديميتروف يندفع مع حماسه في مؤتمراته الصحفية ، فلا ينتبه الى ما يقول . وكل ما يقوله ، او ما يقوله تيتو ، يعتبر في الخارج انه قيل بمعرفتنا . ومثلا على ذلك . قام البولنديون بزيارتنا هنا ، فسألتهم : كيف ترون تصريح ديميتروف ؟ فاجابوا : شيء جميل . فقلت لهم انه ليس شيئاً جميلاً . فقالوا انهم هم ايضاً يعتقدون بأنه ليس شيئاً جميلاً – اذا كان هذا هو رأي الحكومة السوفياتية . لقد وافقوا على التصريح لانهم حسبوا ان ديميتروف ادلى به بمعرفة الحكومة السوفياتية وموافقتها . »

وحاول ديميتروف ، فيما بعد ، تعديل تصريحه عن طريق وكالة التلغراف البلغارية ، ولكنه لم ينتفع قط . وفضلاً عن ذلك ، فقد ذكر ديميتروف كيف ان الامبراطورية النمساوية – الهنغارية ، في زمنها ، عرقلت الاتحاد الجمركي بين بلغاريا والسرب ، مما ادى الى الاستنتاج التالي ، وهو ان المانيا كانت من قبل عقبة في هذا السبيل ، وان روسيا اليوم هي هذه العقبة .

وتابع مولوتوف قائلا ان الحكومة البلغارية ماضية في اقامة اتحاد مع رومانيا دون استشارة الحكومة السوفياتية .

وحاول ديميتروف ان يسهل الامور ، فقال انه لم يتحدث عن الاتحاد الا بعبارات عامة .

ولكن ستالين قاطعه قائلاً : « كلا ، لقد وافقت على الاتحاد الجمركي ، وعلى تنسيق المشاريع الاقتصادية . »

واردف مولوتوف قائلاً : « ... ما هو الاتحاد الجمركي وتنسيق المشاريع الاقتصادية إلا انشاء دولة ؟ »

وهنا اتضحت الغاية من الاجتماع ، مع ان احداً لم يعبر عنه ، وهي ان اية علاقة بين « الديموقراطيات الشعبية » غير مسموح بها ، الا اذا كانت لا تتعارض مع مصالح الحكومة السوفياتية ، والا اذا اقيمت بموافقتها . لقد ظهر جلياً ان الزعماء السوفيات ، بعقلية الدولة العظمى (التي وجدت التعبير عن نفسها في القول ان الاتحاد السوفياتي هو القوة الاشتراكية الموجهة) ، وبإيمانهم بأن الجيش الاحمر هو الذي حرر رومانيا وبلغاريا ، يعتبرون ان تصاريح ديميتروف ، وعناد يوغوسلافيا وعدم انتظامها ، ليس هرطقة فحسب ، بل نكران لحقوق الاتحاد السوفياتي « المقدسة » .

وحاول ديميتروف ان يشرح ، وان يبرر اعماله ، الا ان ستالين كان يقاطعه باستمرار فلم يدعه ينهي كلامه . ها هو ، اخيراً ، ستالين الحقيقي . لقد تحولت سرعة خاطره الى لؤم محض ، وترفعه الى ضيق صدر . على انه ظل يكبح جماحه ، فنجح في كظم غيظه . ودون ان يفقد ، للحظة واحدة ، احساسه بواقع الامور ، راح يوبخ البلغاريين ويلومهم بمرارة . فقد كان يعلم انهم سيخضعون له . أما هدفه الحقيقي فكان اليوغوسلاف – كالمثل السائر : « بحكيك يا جارة ، لتسمعي يا كنه » .

ثم اشار ديميترف ، يؤيده كارديلج ، الى ان يوغوسلافيا وبلغاريا لم تعلنا عن توقيع اية معاهدة في « بليد » ، بل اصدرتا بياناً عن انهما توصلتا الى اتفاق يؤدي الى عقد معاهدة .

وهنا صاح ستالين : « نعم ، ولكنكم لم تستشيرونا . أننا نطلع على اعمالكم من الصحف ! انكم تثرثرون كالنساء فوق السطوح ، بما يعن على بالكم ، ثم تلتقطه الصحف . »

وتابع ديمتروف كلامه محاولاً تبرير موقفه من الاتحاد الجمركي مع رومانيا ، فقال : « ان الأوضاع الاقتصادية في بلغاريا تواجه الصعوبات ، ولا يمكن ان تتطور الى الأفضل بدون تعاونها مع البلدان الاخرى . أما فيما يتعلق بتصريحي في المؤتمر الصحفي ، فيجب ان اعترف انني اندفعت مع حماستي ! »

فقاطعه ستالين قائلاً : « أردت ان تسطع وتتألق ، ان تكون مبتكراً . كنت مخطئاً كل الخطأ ، لأنه من غير المعقول قيام اتحاد من هذا النوع . ما هي الروابط التاريخية بين بلغاريا ورومانيا ؟ لا شيء . ونحن بغنى عن الكلام على بلغاريا ، او مثلاً ، هنغارياً وبولونيا . »

ورد ديمتروف قائلاً : « ليس هناك اي فارق أساسي في السياسة الخارجية لكل من بلغاريا والاتحاد السوفياتي . »

فاجاب ستالين بحزم وثبات : « هناك خلافات خطيرة ! لماذا نخفيها ؟ لقد كان لينين دائماً يعترف بالاخطاء . ويحاول ازالتها باسرع ما يمكن . »

وقال ديميتروف ، بهدوء ، وبشيء من الخنوع : « حقاً ، لقد اخطأنا . ولكننا بالاخطاء نتلمس طريقنا في السياسة الخارجية . »

فاجابه ستالين بخشونة وشدة : « تتلمسون طريقكم ؟ لك في السياسة الخارجية خمسون سنة ، والآن ما زلت تصلح الاخطاء ! ان مشكلتك ليست الوقوع في الاخطاء ، بل اتخاذ موقف يختلف عن موقفنا . »

ونظرت الى ديميتروف بطرف عيني . كانت اذناه قد احمرتا ، وظهرت نقاط حمراء كبيرة على وجهه فغطت بقع « الاكزيما » . وكان شعر رأسه القليل يتدلى خصلاً لا حيـاة فيها على رقبته المجعدة . وشعرت بشفقة عليه . ها هو اسد محاكمات ليبزغ ، والرجل الذي تحدى غورنغ والفاشستية في اوج مجدها ، يبدو الآن منبوذاً خاملاً .

واستمر ستالين في الكلام ، فقال : « الاتحاد الجمركي ، الاتحاد الفيدرالي بين رومانيا وبلغاريا — هذا هراء . اما الاتحاد بين يوغوسلافيا وبلغاريا والبانيا فامر آخر . هنا روابط تاريخيـة . هذا هو الاتحاد الذي يجب ايجاده . والاسراع خير من الابطاء . نعم ، الاسراع افضل — الآن ، اذا امكن . بل غداً ! نعم ، غداً ، اذا امكن . وافقوا عليه فوراً . »

وهنا قال احدهم ، ولعله كارديلج ، ان الاتحاد اليوغوسلافي الالبـاني قد اصبح في حيز التنفيذ .

ولكن ستالين قال باصرار : « لا ، الاتحاد بين بلغاريا ويوغوسلافيا اولاً ، ثم اتحاد البلدين مع البانيا . »

ثم اضاف : « اننـا نعتقد بأن الاتحاد يجب ان يتم بين رومانيـا وهنغاريا ، وبين بولونيا وتشيكوسلوفاكيا ايضاً . »

وهدأت المحادثات لفترة وجيزة .

ولم يذهب ستالين الى اكثر من ذلك حول موضوع الاتحاد . ولكنه كرر ، فيما بعد ، بصيغة توجيهية ، قوله ان الاتحاد بين يوغوسلافيا وبلغاريا والبانيـا يجب ان يتم فوراً . على انه ظهر ، آخر الامر ، ان الزعمـاء السوفيات كانوا يتلهون ايضاً بفكرة اعادة تنظيم الاتحاد السوفياتي بضم « الديمقراطيات الشعبية » اليه — اوكرانيا مع هنغاريا ورومانيا ، والبيلوروسيا

مع بولونيا وتشيكوسلوفاكيا ، أما الدول البلقانية فتنضم الى روسيا . ومهما كانت هـذه المشاريع غامضة ، فأن شيئاً واحداً كان مؤكداً وهو : ان ستالين حاول تنسيق بلدان اوروبا الشرقيـة بطريقة تضمن دعم سيطرة موسكو والابقاء عليها الى زمن طويل .

وبعد ان خيّل الينا ان قضية الاتحاد الجمركي ، اي الاتفاق البلغاري الروماني ، قد انتهت ، قال كولاروف ، وكأنه تذكر امراً هاماً : « لا أرى كيف اخطأ الرفيق ديميتروف ، لاننـا بعثنا بمسودة المعاهدة مع رومانيا الى الحكومة السوفياتية ، والحكومة السوفياتية لم تعلّق بشيء على موضوع الاتحاد الجمركي ، وكل ما فعلته انها اقترحت تحديد لفظة معتدي . »

والتفت ستالين الى مولوتوف سائلاً : « هل بعثوا الينا بمسودة عن المعـاهدة ؟ »

فاجـاب مولوتوف ، دون ارتبـاك ، ولكن بشيء من المرارة : « نعم .. »

فقال ستالين مستسلماً بغضب : « نحن ايضاً نرتكب حماقات ! »

واستغل ديميتروف هذه الحقيقة الجديدة فقال : « هـذا هو السبب الحقيقي لتصريحي . لقـد بعثنا بالمسودة الى موسكو ، ولم اعتقد انكم ستعارضونها ابداً . »

ولكن ستالين بقي متشبثاً ، فقال : « هذا هراء . لقد تحمست كشاب في « الكوموسمول » . لقد اردت ان تدهش العالم ، وكأنك مـا زلت سكرتيراً للكومنترن . لا انتم ولا اليوغوسلاف تسمحون لنا بالاطلاع على ما تفعلون . كأنما علينـا ان نعثر على كل شيء في الطريق . انكم تضعوننا امام الامر الواقع ! »

واراد كوستوف الذي كان مسؤولا عن شؤون بلغاريا الاقتصادية في ذلك الوقت ، ان يبدي رأيه ايضاً ، فقـــال : « من الصعب ان نبقى بلداً صغيراً متخلفاً ... اريد ان اطرح بعض القضايا الاقتصادية . »

ولكن ستالين اوقفه عن الكلام ، مشيراً عليه ان يتصل بالوزارات المختصة ، ذلك ان هذا الاجتماع مخصص لبحث الخلاف القائم في السياسة الخارجية بين الحكومات الثلاث واحزابها .

واخيراً اعطي الكلام لكارديلج . كان محمر الوجه ، وقد أحنى رأسه بين كتفيه ، وراح يتعثر في الكلام ، كعادته حينما يكون منفعلا . فاشار الى ان المعاهدة التي تم التوقيع عليها في « بليد » بين يوغوسلافيا وبلغاريا قد عُرضت على الحكومة السوفياتية اولا ، ولكن الحكومة السوفياتية لم تعلق عليها بشيء ، إلا باقتراحها ان تكون مـــدة الاتحاد « عشرين سنة » بدلا من ان يكون « الى اجل غير مسمى . »

واخذ ستالين ينظر الى مولوتوف بصمت لا يخلو من تأنيب . اما مولوتوف فقـــد لوى رأسه وزم شفتيه وهو يصادق على حقيقـــة ما يقوله كارديلج .

وتابع كارديلج قائلاً : « باستثناء هذا الاقتراح الذي وافقنا عليه ، لم يحدث اي خلاف ... »

فقاطعه ستالين بغضب لا يقل عن غضبه عندما خاطب ديميتروف ، ولكن باقل اساءة ، وقال : « هذا هراء ! هنالك خلافات ، وخلافات خطيرة . ماذا بصدد البانيا ؟ لم تستشيرونا ابـــداً حول دخول جيوشكم الى البانيا . »

واجاب كارديلج قائلا : « ان ذلك قد جرى بموافقة حكومة البانيا . »

فصاح به ستالين قائلا : «هذا قد يؤدي الى مضاعفات دولية خطيرة . فالبانيا دولة مستقلة ! الا تعتقد ذلك ؟ بتبرير او بدون تبرير ، فالحقيقة تبقى ، وهي انكم لم تستشيرونا عن ارسال فرقتين من الجنود الى البانيا . »

وقال كارديلج ان ليس في هذا الصدد ما كان نهائياً ، واضاف قائلا انه لا يتذكر ان الحكومة اليوغوسلافية قد قامت باجراء واحد ، في السياسة الخارجية ، دون ان تستشير الحكومة السوفياتية .

وصرخ ستالين قائلا : «هذا ليس صحيحاً . انكم لا تستشيروننا ابداً . هذا ليس خطأكم ، بل خطأ سياستكم ـ نعم ، سياستكم ! »

وهنا صمت كارديلج ولم يصر على وجهة نظره .

وتناول مولوتوف قصاصة ورق وقرأ فقرة من المعاهدة اليوغوسلافية ـ البلغارية ، وقد جاء فيها : «ان بلغاريا ويوغوسلافيا ستعملان بروح الامم المتحدة ، وستدعمان كل ما من شأنه المحافظة على السلام والقضاء على مكامن الاعتداء . »

وسأل مولوتوف : «ما معنى هذا ؟ »

وشرح ديميتروف ذلك بقوله انه يعني توحيد الصف مع الامم المتحدة في كفاحها ضد مكامن الاعتداء .

وتدخل ستالين فقال : «كلا ، انه حرب وقائية ـ ومن ابسط الحيل الصبيانية . انه كلام منمق لا يؤدي إلا الى وضع الحبوب في طاحونة الاعداء . »

وعاد مولوتوف الى الحديث عن الاتحاد البلغاري ـ الروماني ، فقال عنه انه بداية الاندماج بين البلدين .

وتدخل ستالين قائلا : «ان الاتحادات الجمركية ، على العموم ، مشاريع

غير واقعية .» واذ خفت حرارة الحديث ، الى حد ما ، قال كارديلج : «ان الاتحــاد الجمركي في بعض الاماكن اثبت انه ليس ، من الناحيـة العملية ، سيئاً .»

فقال ستالين : «اعطني مثلا على ذلك ؟»

فاجــاب كارديلج بحــذر : «مثلا ، البينيلوكس ، وهو يجمع بين بلجيكا ، وهولندا ، واللوكسمبورغ .»

فقال ستالين : «لا ، هولندا لم تنضم اليه . بلجيكا واللوكسمبورغ فقط . هذا لا شيء ـ عديم الاهمية !»

وقال كارديلج : «لا ، ان هولندا عضو فيه .»

واصرّ ستالين على رأيه قائلاً : «لا ، هولندا ليست عضواً فيه !»

ونظر ستالين الى مولوتوف ، وزورين ، والآخرين . واردت ان اخبره ان مقطع «ني» في كلمة البنيلوكس ، مشتق من كلمة «نيذرلاندز» اي هولنــدا . ولكن بما ان احداً لم يحرك ساكناً ، فقد آثرت السكوت . وهكذا بقيت هولندا خارج البنيلوكس !

ثم انتقل ستالين الى موضوع التعــاون في المشاريع الاقتصادية بين رومانيا وبلغاريا ، فقال : «ان هذا عقيم . فبــدل التعاون ، سرعان ما سينشب النزاع . اما توحيد يوغوسلافيا وبلغاريا فامر آخر . فهنالك ما هو مشترك بينهما ـ آمال قديمة العهد .»

واشار كارديلج الى انه قد تقرر في «بليد» ان يتم الاتحــاد بين يوغوسلافيا وبلغاريا تدريجياً . ولكن ستالين قاطعه قائلاً : «لا ، فوراً ـ غداً . يجب ان يتم الاتحاد بين بلغاريا ويوغوسلافيا اولاً ، ثم تنضم البانيا اليهما ، فيما بعد .

ثم انتقل ستالين الى الثورة في اليونان ، فقال : « يجب انهاء هذه الثورة في اليونان . » ثم اضاف مخاطباً كارديلج : « هل تؤمن بنجاح الثورة في اليونان ؟ »

فاجاب كارديلج : « نعم ، اذا لم يزدد التدخل الخارجي ، واذا لم تُرتكب اخطاء سياسية وعسكرية خطيرة . »

واستطرد ستالين قائلا ، دون ان يعير رأي كارديلج اي انتباه : « اذا ، اذا ! لا ، ليس لهم اي امل بالنجاح . ماذا ، هل تعتقد ان بريطانيا العظمى ، والولايات المتحدة ــ الولايات المتحدة التي هي اقوى دولة في العالم ــ ستسمحان لكم بقطع خط مواصلاتهما في البحر الابيض المتوسط ؟ هذا هراء . ونحن لا نملك اسطولا . ان ثورة اليونان يجب ان تتوقف ، وبأسرع ما يمكن . »

وذكر احدهم نجاح الصينيين الشيوعيين الاخير ، ولكن ستالين بقي متصلباً . وقال : « نعم . لقد نجح رفقاؤنا الصينيون ، ولكن الوضع في اليونان مختلف تماماً . ان للولايات المتحدة علاقة مباشرة هناك ــ وهي اقوى دولة في العالم . اما الصين فمسألة اخرى ، والعلاقات في الشرق الاقصى تختلف تماماً . صحيح ، نحن ايضاً قد نرتكب اخطاء . هنا ، حين انتهت الحرب مع اليابان ، دعينا رفقاءنا الصينيين الى الموافقة على وسيلة لاقرار حالة تعايش مع شان كاي شيك . فوافقوا معنا بالكلام . اما بالفعل ، فقد انفردوا باتباع طريقتهم الخاصة ، بعد عودتهم الى بلادهم : فقد جمعوا قواهم ووجهوا الضربة . وقد اثبتوا انهم كانوا على حق . ولكن الوضع في اليونان بخلاف ذلك . يجب ان لا نتردد ، بل دعونا نضع حداً لثورة اليونان . »

انني ، الى اليوم ، لا اعرف الدوافع التي جعلت ستالين يندد بثورة اليونان . لعله ظن ان خلق دولة شيوعية اخرى في البلقان ـ اليونان ـ قد لا تكون لصالحه ، حين لم تكن حتى الدول الشيوعية موثوقاً بها وخاضعة له . هذا بالاضافة الى المضاعفات الدولية التي اخذت تزداد تهديداً ، والتي ان لم تجر الى حرب ، فهي على الاقل تضع المراكز التي ربحها في خطر .

أما هدف ستالين في تخفيف حدة الثورة الصينية ، فقد كان ولا ريب ، انتهازياً من حيث سياسته الخارجية . ولعله ايضاً قد تحسب لخطر مقبل يهدد عمله وامبراطوريته ، مصدره الدولة الشيوعية الكبيرة الجديدة ، خصوصاً ولم يكن هنالك اي أمل بالسيطرة عليها داخلياً . ومهما يكن ، فقد عرف ان كل ثورة جديدة ، لمجرد كونها جديدة ، تصبح مركز التفاف ثوري جديد وتعمد الى تكوين حكومتها ودولتها ـ وهذا ما كان يخشى حدوثه في الصين ، خصوصاً وان ظاهرة تلك الثورة كانت مليئة بالوعود كثورة اكتوبر .

وبدأت حدة المحادثات تزول ، فأشار ديمتروف الى امكان انماء العلاقات الاقتصادية مع الاتحاد السوفياتي ، الا ان ستالين قاطعه مرة اخرى قائلا : « سوف نتحدث عن هذا الموضوع مع الحكومة البلغارية ـ اليوغوسلافية المشتركة . »

ثم رد ستالين على شكوى كوستوف من فقدان العدالة في احكام الاتفاق الخاص بالمساعدة الفنية بين بلغاريا والاتحاد السوفياتي ، فاشار عليه ان يقدم مذكرة بهذا الشأن الى مولوتوف .

وسأل كارديلج عن الموقف الذي يجب اتخاذه حيال مطالبة الحكومة الايطالية بوضع الصومال تحت وصايتها . وقال : « ان يوغوسلافيا تميل الى

تأييد هذا الطلب . » ولكن ستالين تمسك بوجهة النظر المعاكسة ، وسأل مولوتوف اذ كان قد أعد رداً بهذا الخصوص . وقد برر ستالين موقفه هكذا : « في العهود الماضية ، حين كان الملوك يختلفون على الغنائم ، كانوا يسلمونها الى اضعف مواليهم ؛ وذلك املاً بانتزاعها منهم فيما بعد ، عند أول مناسبة . »

ولم ينس ستالين ، قبل انتهاء الاجتماع ، ان يستر الحقيقة – حقيقة مطاليبه وأوامره – بستار لينين واللينينية . فأعلن : « نحن ايضاً ، تلامذة لينين ، طالما اختلفنا مع لينين نفسه ، بل تخاصمنا حول بعض المسائل . ولكننا كنا دائماً نتفاهم ، ونوطد مراكزنا – ثم نندفع الى الأمام ! »

وقد استغرق الاجتماع ساعتين .

ولم يدعنا ستالين ، هذه المرة ، الى العشاء في بيته . ويجب ان اعترف بأنني شعرت بحزن وفراغ نتيجة لذلك ، اذ كانت محبتي العاطفية الانسانية له ما زالت عظيمة . »

وشعرت ببرودة الفراغ ، وبالمرارة . وفي السيارة حاولت ان اشرح لكارديلج كم كنت مستاء من الاجتماع ، ولكنه كان يحس بالضيق الشديد ، فأشار علي بأن التزم الصمت .

وهذا لا يعني اننا لم نكن متفقين ، ولكن ردة فعلنا كانت متباينة .

ولقد تجلى اسى كارديلج في اليوم التالي ، حين اخذوه الى الكرملين دون رسميات ودون ذكر الأسباب – ليوقع مع مولوتوف على معاهدة تبادل المشورة بين يوغوسلافيا والاتحاد السوفياتي . فقد وقع بامضائه في مكان خاطىء ، مما جعله يضطر الى التوقيع مرتين .

وفي اليوم نفسه ، ذهبنا الى ديميتروف ، حسب اتفاقنا في مكتب ستالين ،

لتناول الغداء معه وللموافقة على الاتحاد بين بلدينا . وقد فعلنا ذلك بصورة آلية - تحت وطأة سلطة الحكومة السوفياتية وحرصها على اطاعة النظام . وكانت المحادثات حول الموضوع بين الجانبين قصيرة ، فاتفقنا على ان نجري اتصالات ، مرة اخرى ، حالما نعود الى بلادينا .

ولم يسفر كل ذلك ، بالطبع ، عن نتيجة . اذ بعد شهر واحد فقط ، بدأ مولوتوف وستالين بمهاجمة الزعماء اليوغوسلاف في رسائلهما ، تؤيدهما اللجنة المركزية البلغارية . وهكذا اتضح ان الاتحاد مع بلغاريا لم يكن إلا شركاً لتحطيم اتحاد الشيوعيين اليوغوسلاف . وهو شرك لا يجرؤ اي شيوعي مثالي الآن ان يضع رأسه فيه . ومع ان كل شيء قد بدا ، على السطح ، هادئاً ، كان الخصوم يعملون على اتخاذ مواقف متطرفة . وكان هذا كله مقدمة لما كان سيجيء فيما بعد ، اي الانقسام المكشوف بين يوغوسلافيا والاتحاد السوفياتي ، في حزيران (يونيو) عام ١٩٤٨ .

ومن الذكريات التي ما أزال احملها عن ذلك الاجتماع ، هو رغبة كوستوف في مساعدتنا ومودته نحونا . وكان هذا غير منتظر ، خصوصاً لان الاوساط الشيوعية اليوغوسلافية العليا كانت تعتبر كوستوف معارضاً لها ، واذن موالٍ للسوفيات . والواقع هو انه كان يؤيد استقلال بلغاريا ، ولذلك كان يمقت اليوغوسلاف لانهم كانوا ، في نظره ، جلادي السوفيات ، ويهدفون الى فرض السيطرة على بلغاريا والحزب الشيوعي فيها . وقد اعدم كوستوف ، فيما بعد ، بالتهمة الكاذبة ، القائلة بانه كان صنيعة يوغوسلافيا ، في حين كانت الصحف اليوغوسلافية تهاجمه حتى اليوم الاخير . هكذا كان حال الشك وسوء التفاهم اللذين اينعا وكبرا في ظل ستالين .

تلك كانت هي المناسبة التي اخبرنا فيها ديميتروف بما عرفه عن القنبلة الذرية . وقد قال لنا ، وهو يرافقنا عند خروجنا من دارته : « ان الغاية من كل هذا لم يكن انتقاد تصريحي ، بل شيء آخر تماماً ! »

لقد كان ديميتروف يعرف ، حقاً ، كل ما كنا نعرفه نحن . ولكنه لم يكن يملك القوى ، بل ربما افتقر هو نفسه الى قوة الزعماء اليوغوسلاف .

ولم اخش ان يحدث لنا شيء ونحن في موسكو ، فقد كنا مندوبي دولة اجنبية مستقلة . ومع ذلك ، فلم تفارق مخيلتي صورة غابات البوسنيا ، هذه الغابات التي لجأنا اليها ابان اعنف هجمات الالمان ، وتلك الينابيع الصافية الباردة التي كنا نرتاح بالقرب منها . حتى انني قلت ، ربما لكارديلج ، بلهجة قد يكون وجد فيها بعض المبالغة : « ليتنا نعود الى جبالنا وغاباتنا ، باسرع وقت ممكن ! »

وغادرنا موسكو بعد ثلاثة او أربعة ايام . لقد نقلونا بالسيارة الى مطار نوكوفو في الساعات الاولى من الصباح ، ووضعونا ، دون إكرام ، على متن طائرة . وما ان اقلعت بنا الطائرة ، حتى شعرت بسعادة الطفل ، وكذلك ايضاً بفرح جدي عميق . وقد حاولت شيئاً فشيئاً ان لا افكر برواية ستالين عن مصير الجنرال سيكورسكي .

لقد كان من العسير التصديق انني كنت ذلك الشخص ذاته الذي كان ، لأربع سنوات خلت ، يسرع الى الاتحاد السوفياتي بشوق ، وبقلب سمح ، وولاء تلميذ .

ومرة اخرى تلاشى حلم آخر تحت وطأة الواقع .

فهل يعني هذا ان حلماً جديداً قد يطلع ؟

خلاصة

كثيرون من الناس ، بينهم تروتسكي ، بالطبع ، يؤكدون ويصرون على نزعة ستالين الاجرامية المتعطشة للدماء . امـــا أنا ، فانني لا انوي ان اؤكدها او انفيها ، ما دمت لا اعرف الحقائق جيداً . وقد اعلن ، منذ حين ، في موسكو انه من المحتمل ان يكون ستالين قد قتل كيروف ، سكرتير الحزب في لينينغراد ، كذريعة لتصفية حساباته مع المعارضة داخل الحزب . واغلب الظن ان له يداً في قتل غوركي ، لانه استغل مقتله في دعايته الصارخة ضد المعارضة . ويشك تروتسكي في انه قتل لينين ايضاً ، بحجة انقاذه من اوجاعه . وزُعم ايضاً انه قتل زوجته ، او في أيـــة حال ، انه ، لشراسته في معاملتها ، حملها على الانتحار . اما الرواية الرومانسية التي اذاعها عملاء ستالين ، والتي سمعتها انا بنفسي ، والقائلة بانها تسممت وهي تذوق الطعام امام زوجها الطبيب ، فهي رواية مغرقة في السذاجة .

كانت كل جريمة ممكنة لستالين ، وليس هناك جريمة واحـــدة لم يرتكبها . ومهما يكن مقياسنا لشخصيته ، فله مجد كونه اعظم مجرم في

التاريخ – وفي الازمنة التي ستجيء ، انشاء الله . فقد كان يجمع الى وحشية كاليغولا رهافة آل بورجيا وبطش القيصر ايفان الرهيب .

كان اكثر ما يهمني معرفته ، ولا يزال ، هو كيف استطاع مثل هذا الرجل القاتم ، المراوغ ، الفظ ، ان يقود دولة من اعظم الدول واقواها ، لا ليوم واحد او سنة واحدة وحسب ، بل لمدة ثلاثين سنة كاملة ؟ هذا ما ينبغي لمنتقديه اليوم – اعني خلفاءه – ان يفسروه . والى ان يفعلوا ذلك ، فانهم يثبتون انهم ، في الاهم ، انما يواصلون عمله ، وانهم مجبولون من الطينة نفسها ، وخاضعون للافكار والانظمة والاساليب نفسها التي خضع لها . فليس صحيحاً فقط ان ستالين قد استغل عياء المجتمع الروسي وقنوطه ، بعد الحرب العالمية الكبرى ، لبلوغ مآربه ، بل الصحيح ايضاً ان طبقة معينة من هذا المجتمع ، اي بيروقراطية الحزب السياسية الحاكمة ، كانت تفتقر الى رجل من نوع ستالين – رجل متهور في تصميمه ، عملي جداً في تعصبه . وقد تبعه الحزب الحاكم بخنوع وطاعة – فقاده من نصر الى نصر ، حتى اذا ما أسكرته نشوة السلطان ، اخذ يجرم بحقه ايضاً . وهذا كل ما يلومه الحزب عليه اليوم ، متجاوزاً بصمت جرائمه الاكثر وحشية ضد « العدو الطبقي » – الفلاحون ، والمفكرون ، وكذلك الجناحان الايمن والايسر داخل الحزب وخارجه .

وما دام هذا الحزب عاجزاً عن التخلص ، نظرياً وعملياً على الأخص، من كل ما انطوى عليه من بذور ستالين والستالينية وجذورهما ، او بكلمة اخرى ، الانضباط العقائدي الصارم او ما يسمى بالبناء الوحداني للحزب ، فانه يقيم الدليل على بقائه قابعاً في ظل ستالين . وهكذا يبدو لي ان الغبطة الحالية بعزل مولوتوف ومن لف لفه ممن يسمونهم بالفئة المعادية للحزب،

بالرغم من شخصيته المقيتة وآرائه الفاسدة المفسدة ، انما هي غبطة سطحية وسابقة لأوانها .

ذلك ان جوهر المشكلة ليس في ان هذه الفئة افضل من تلك ، بل في ما اذا كان هنالك من مبرر لوجودهما جميعاً — او في مـا اذا كان من الواجب ، على الاقل كبداية ، انهاء احتكار فئـة واحدة لجميع المقدرات السياسية والعقائدية في الاتحاد السوفياتي . ان ظل ستالين المظلم مـا زال يخيم فوق الاتحاد السوفياتي ، واذا لم تقع حرب ، فانني اخشى ان يظل مخيماً لزمن طويل . فهو ، بالرغم من اللعنات التي انصبت عليه ، ما زال يعيش في المؤسسات الروحية والاجتماعية للشعب السوفياتي .

ان الاشارة الى لينين في الخطب والبيانات الفردية لا يمكن ان يغير الجوهر . وانه لأيسر ان تكشف القناع عن جريمة ما من جرائم ستالين ، من ان تخفي الحقيقة القائلة بان هذا الرجل هو الذي « بنى الاشتراكية » ، وهو الذي رفع دعائم المجتمع السوفياتي الحاضر والامبراطورية السوفياتية .

كل هذا يرينا ان المجتمع السوفياتي ، بالرغم من منجزاته الفنية ، او ربما بسبب هذه المنجزات ، يكاد لا يتغير . فهو مـا زال سجيناً ضمن نطاق مذهبه الستاليني الخاص .

وانه ليخيل الي ، بالرغم من هـذه الانتقادات ، ان هنالك املاً بظهور افكار وأشكال جديـدة في المستقبل المنظور . وهي لا تزعزع « وحدانية » خروتشيف ، ولكنها على الأقل ، تفضح متناقضاتها وما هي عليه في حقيقتها . أما في الوقت الحاضر ، فإن التغييرات الواسعة النطاق مستحيلة الحدوث . ذلك ان الذين يحكمون لا يزالون ، هم انفسهم ، افقر من ان يجدوا ان التعصب المذهبي واحتكار السلطة ليستا ضروريتين ، او هما من

العوائق . فضلاً عن ان الاقتصاد السوفياتي قادر على البقاء محصوراً ضمن امبراطوريته ، وعلى تحمل الخسائر التي يتكبدهـا من جراء انفصاله عن السوق العالمي .

وبالطبع ، ان قيمة الكثير مما هو انساني تتوقف على الزاوية التي ينظر منها اليها .

وهكذا هي الحال مع ستالين .

فاذا نظرنا اليه من زاوية الحرية والانسانية ، فأن التاريخ لم يعرف مجرماً بوحشية ستالين وعبثيته . لقد كان منهجياً ، وجامعاً كل شيء ، وكلياً ، كمجرم . وكان واحداً من المذهبيين المتزمتين الهـائلين القلائل ، القادرين على تدمير تسعـة اعشار الجنس البشري من اجل « اسعاد » العشر الباقي .

ولكننا اذا اردنا ان نقرر : مـاذا يعني ستالين حقاً في التاريخ الشيوعي ، عندئذ يجب اعتباره ، حتى الآن ، أهم شخص بعد لينين . انه لم يطور الافكار الشيوعية كثيراً ، ولكنه تبناهـا واخرجها الى حيز الوجود في مجتمع وفي دولة . وهو لم يبن مجتمعاً مثالياً ـ فهذا أمر مستحيل في جوهر طبيعة الانسان والمجتمع ـ الا انه حوّل روسيا المتخلفـة الى دولة صناعية وامبراطورية يزداد طموحهـا ، باصرار وعناد ، للسيطرة على العالم .

اما من حيث نجـاحه السياسي ، ومعدنه كسياسي ، فلا يتفوق عليه اي رجل دولة في زمنه .

انني بعيد عن التفكير ، بالطبع ، في ان النجاح في النضال السياسي هو المحك الوحيـد . ثم انني ، بصورة خاصة ، لا اقرن السياسة بسوء

الاخلاق ، بالرغم من اني لا انكر ان السياسة ، بمجرد كونها صراعاً في سبيل بقاء مجتمعات انسانية ما ، معرضة لتجاهل ابسط المبادىء الاخلاقية . وعندي ان السياسيين الكبار ، ورجال الدولة الكبار ، هم الذين يجمعون بين المثل العليا وبين الواقع ، والذين يستطيعون المضي بثبات نحو اهدافهم ، مع محافظتهم ، في الوقت نفسه ، على القيم الاخلاقية .

وخلاصة الامر ، كان ستالين وحشاً ، يخضع للافكار المثالية المطلقة . الا انه ، في الواقع ، لم يعترف باي محك سوى النجاح ـ وهذا يعني العنف والمحق الجسدي والروحي .

ومهما يكن من امر ، فانه ينبغي لنا ان لا نكون غير عادلين تجاه ستالين . ان ما اراد ان يحققه ، وحتى ما حققه فعلا ، لم يكن بالامكان تحقيقه بطريقة أخرى .

فالقوى التي قادها والتي دفعته الى الامام ، بكل افكارها المثالية المطلقة ، لم تكن تستطيع ان يكون لها نوع من الزعماء سواه ، اذا ما اخذنا بعين الاعتبار علاقات روسيا ببقية العالم ، ولا كانت تُخدم بغير تلك الاساليب .

لقد خلق ستالين مجتمعاً مغلقاً ، وكان ، في الوقت نفسه ، اداة هذا المجتمع ، حتى اذا ما تغيرت الظروف ، ولكن بعد فوات الاوان ، اصبح ضحيته . ومع ان هذا الرجل قد تفوّق في العنف وفي الجريمة ، فقد ظل زعيماً ومنظماً لجهاز اجتماعي معين . انه اليوم في مرتبة منخفضة ، يهاجم لـ « اخطائه » التي عن طريقها ينوي زعماء هذا الجهاز نفسه ان ينقذوا انفسهم والجهاز معاً .

وبالرغم من ان اسقاط ستالين عن عرشه قد جرى بشكل مسرحي رخيص ، فانه يقيم الدليل على ان الحقيقة تظهر ولو ان الذين ناضلوا في سبيلها قد هلكوا . فالوجدان الانساني لا يقهر ولا يقضى عليه .

ولسوء الحظ ، فاننا اليوم ، بعد الحملة ضد ستالين والستالينية ، ما زلنا نتوصل الى الاستنتاج نفسه : وهو ان اولئك الذين يريدون ان يعيشوا في عالم غير الذي خلقه ستالين ، والذي ما زال موجوداً ووطيد الدعائم ، يجب ان يناضلوا في سبيل بقائهم على قيد الحياة .



خرج **ميلوفان دجيلاس** من السجن بعد ان امضى فيه أربع سنوات ، وذلك بتهمة الاعراب عن اراء « معادية للشعب والدولة اليوغوسلافية . » وقد كان قبل طرده من اللجنة المركزية الشيوعية ، عام ١٩٥٤ ، أحد الزعماء الأربعة الكبار في الحكومة اليوغوسلافية ، فكان وزيراً ، فرئيساً للبرلمان ، فنائباً للرئيس تيتو .

ولد دجيلاس ، عام ١٩١١ ، في مقاطعة الجبل الأسود ؛ وهي المقاطعة التي وصفها في كتابه المعروف « أرض بلا عدالة . » وفي جامعة بلغراد ، اشتهر بنظم الشعر وكتابة القصة ، كما اشتهر بروحه الثورية . وقد انضم الى الحزب الشيوعي عام ١٩٣٢ ، فالقي عليه القبض وسجن لمدة ثلاث سنوات . وما ان بلغ السابعة والعشرين ، حتى أصبح عضواً في اللجنة المركزية الشيوعية ، ثم في عام ١٩٤٠ عضواً في المكتب السياسي للحزب .

وعندما احتل الألمان يوغوسلافية عام ١٩٤١ ، قاد دجيلاس مع رفقائه حركة المقاومة الشعبية . وفي عام ١٩٤٤ رئس وفداً عسكرياً الى موسكو ، وفي العام التالي ــ وكان قد أصبح وزيراً ــ ذهب الى موسكو موفداً من حكومته لمباحثة ستالين والزعماء السوفيات. وفي ١٩٤٧ اشترك في انشاء الكومنفورم الذي اتخذ بلغراد مقراً لأعماله . وفي ١٩٤٨ رئس وفداً يوغوسلافياً آخر الى موسكو ، مهمته تفادي وقوع الانشقاق بين الدولتين الشيوعيتين : الاتحاد السوفياتي ويوغوسلافية ، ولكن دون جدوى .

وقع الخلاف بين دجيلاس وزعماء الحزب الشيوعي اليوغوسلافي ، حين كتب مقالات عديدة ، وبخاصة مؤلفه الشهير « الطبقة الجديدة » ، ينتقد فيها البيروقراطية اليوغوسلافية الجديدة . وقد سجن مرتين : امضى في المرة الاولى ثلاث سنوات ، وفي الثانية أربع سنوات. وكان في هذه الاثناء يؤلف ويكتب بكثرة . من ذلك كتابه **« محادثاتي مع ستالين »** الذي من أجله القي القبض عليه مرة اخرى ، وذلك في ٧ نيسان (ابريل) ١٩٦٢ ، وحكم بالسجن تسع سنوات .